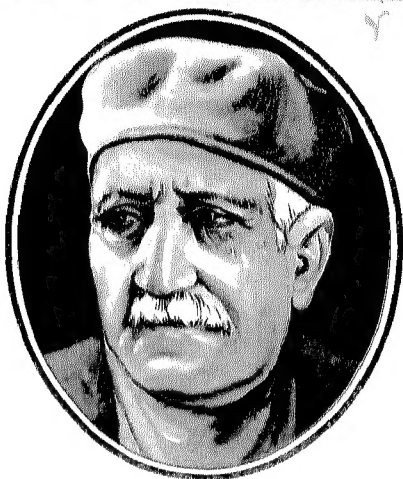


عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله



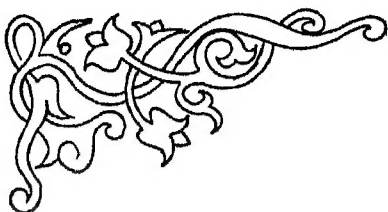
الكتاب القديم

٢٠٠٢



للطباعة والنشر والتوزيع





الاستاذ في الفقه

عباس محمد العفاد



مكتبة
للطباعة والنشر والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْسَانُ الْقُرْءَانُ
وَإِنْسَانُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ

تمهيد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها ، كما أُلجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون . .
 قدما كان الحكماء يجعلون شعارهم في نصيحة الإنسان : « اعرف نفسك ! » .
 وإنها لنصيحة قد ترادف سؤا لهم : من أنت ؟ أو سؤا لهم : ما اسمك ؟ غير أن الإنسان إذا أجابه فأنما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بلامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف . .
 وهو على أية حال سؤال إلى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون في الحجرة الواحدة ويحيون عليه عشرين جوابا متفرقات . .
 وقدما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقي سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهر ، وعلى ثلاث عند المساء . . فكان سؤا لهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الإنسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحب على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الإنسان كله . .
 لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة . .
 إلا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الإنسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح . .

ما مكان الإنسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ . .

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الإنسان » . . .
وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيها المجهول . . تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة . . حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان . .

إن القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الأيديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » لأنه كلما ألقى على الإنسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه إلى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه . . فإن يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدث بالأبدان والعقول .

وليس أكثر من « المبادئ والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن . ويسمونها بالمذاهب و « الأيديولوجيات » .

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعدها إلى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى إلى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الإنسانية ، فلا يغنى فيها إيمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصارك إنك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك إن سكتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وإنما الضلالة فىمن يريد لها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولن يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد

يقعدون وهم يجهلون لإنهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخير وما المنتظر ؟ إن علموا أنهم منتظرون ! . .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير إليها ، وسبيلها جميعا أن تنهدى إلى قبلة واحدة : تنظر إليها فتمضى قدما ، أو تفقدها في الأفق فهي أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق . .

إن القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا نعلم إنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلهم كل قوة يعتصم بها الناس .

* * *

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وإن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادئ ومذاهب و « إيديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن . .

وإن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعائها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الإلهية ، ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم .

وقد استمع الناس إلى المادية التاريخية ، فقالت لهم إن الإنسان عملة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، تعلق وتهبط في طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية ،

فقلت لها إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها الأسعار والأجور . .
واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر
مسود ، وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك
عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء
لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد
الواحد ! . . وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن
المغبة من سائر الأفراد والأحداث ، . !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من
الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته في آدم وحواء .

سمعوا إنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ،
ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبي الفناء . .

وسمعوا إنه إنسانان . . إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول . .
صحيح مقبول كل من اجتبه موله على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه
ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب
بكفارة غيره ، ويمضي بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من
عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى
الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه . .

الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين
بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار
والأسماع .

و « الإنسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه . .

* * *

وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز . . نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الخدس والخيال ، ولا نزيد في سردنا على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الإنسان . .

الكتاب الأول

الإنسان في القرءان

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب إلى عقائد الرشد والهداية . . لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التي ذكرها القرآن عن الإنسان ، إما خاصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله . .

ولقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم في آن واحد ، وإنما معناه إنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منها ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف .

والإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ « سورة الطور آية ٢١ »

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « سورة البقرة آية ١٣٤ » .

* * *

أما مناهج المسئولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الديني أو التشريع في الموضوع . .

فهو بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملية : تبليغ ، وعلم ، وعمل . . فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل الإيمان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ « سورة يونس آية ٤٧ »

* * *

« سورة فاطر آية ٢٤ »

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

* * *

« سورة الاسراء آية ١٥ »

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

* * *

أما العلم فإن أول آية في الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية ، كانت
أمرا بالقراءة وتنويعها بعلم الله وعلم الإنسان :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ

« سورة العلق ٣-٥ »

يَعْلَمُ ﴾

وأول فاتح في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذي تعلمه آدم وامتناز به على
سائر المخلوقات :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

« سورة البقرة آية - ٣٢ »

* * *

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف ،
وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه .

« سورة البقرة آية ٢٨٦ »

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

« سورة النجم آية ٣٩ »

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

« سورة الزلزلة ٧ - ٨ »

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أمهم جميعا أمة واحدة هي « الأمة الإنسانية » والمهم جميعا إله واحد هو رب العالمين :

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

« سورة المؤمنون ٥١ - ٥٢ » .

* * *

وفيما ذكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو في الذروة من الكمال المقدور له بما ستعد له من التكليف ، ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التي ينحدر إليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهي ، والعظة والتذكير . والثواب والعقاب . .
فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

« سورة الاسراء ٧٠ » .

* * *

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

« سورة التين آية ٤ »

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ﴾

« سورة لقمان آية ٢٠ » .

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾

« سورة الحج آية ٦٥ » .

* * *

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة - على السواء - لا يوصف بها مخلوق غير مسئول . .

فهذا المخلوق المستول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ « سورة إبراهيم ٣٤ » .

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَاطِلٌ ﴾ ﴿ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ « سورة البلق ٦ - ٧ » .

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ « سورة العصر آية ٢ » .

* * *

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ « سورة القيامة آية ٥ » .

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ « سورة العاديات آية ٦ » .

* * *

وقد يذكر بالضدين في الآية الواحدة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

« سورة التين ٤ - ٥ » .

ونقرأ في بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد .

ونقرأ في غيرها أن أسفل سافلين هي الجحيم ، فيكون لازماً أن الجنة هي المقصودة بأحسن تقويم .

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الإنسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطاً باعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل

والإرادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم
بوظائف الأعضاء الذى أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق فى
الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن
من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال .

وإنما المعنى الموافق لسائر معانى الآيات ، أن الجمع بين النقيضين فى الإنسان
ينصرف إلى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى إلى
أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين .

على أن الآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان ، لم تخل مما يوحى
إلى المخلوق المستول أن أطوار خلقه سوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ،
وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فىرى فيه آثار الخالق
الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ۖ عَلَقَةً مُضْغَةً ۖ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ۖ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾
« سورة المؤمنون ١٢ - ١٤ » .

* * *

﴿ ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ ﴾
« سورة السجدة ٦ - ٩ » .

* * *

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ۖ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾
« سورة الروم آية ٢٠ »

* * *

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

لَا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة يس آية ٣٦ » .

ولا يسأل الإنسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محبوب كله عن علم الإنسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه .

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبین .

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية .

وخلق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه إلى هذه الفضيلة التي تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الواقع البديهي لا يحتاج إلى التنبيه ، ولكن حاجته إلى التنبيه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، في فضيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان .

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجات الإنسان من الهلاك أو ضياعه في هاوية المقت واللعة ، ثم تبحث عن هذه الأركان في كتاب الدين فإذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادقات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها . . مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقیض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادقة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ . .

مكان الإنسان في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخليفة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات . .

هو الكائن المكلف . .

هو كائن أصوب في التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » وأشرف في التقدير . .

هو كائن أصوب في التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف في التقدير من هذا وذاك .

ليس الكائن الناطق بشيء ، إن لم يكن هذا النطق أهلاً لأمانة التكليف وليس الملك الهابط منزلة تهدي إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء .

إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح في الخليقة موضوع في موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عده . .

أى شيء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية . .

إنها عجيبة لا يدفع عجبها إلا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين . .
إنها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتفكرون ، قبل أن يصبح العقل « درساً » يتقصاه الدارسون كنها وعملاً ، وأثراً فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يثول إليه . .

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف . .

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور . .

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . .

العقل روية وتدير . .

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار . .

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ ونعى وتبدئ وتعيد . .

والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور . .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعينهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾

« سورة آل عمران آية ١٩١ » .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾

« سورة الروم ٨ » .

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظاته جميعا إذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الإنسان بالتكليف في القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز في مصطلحات الأوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارئ لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في هذا الكتاب أن الأمر فيه يجري على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة . .

إنها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشرى قبل تمييز الإنسان بخاصة التكليف وإعداده لخطاب العقل وبيانات الاقناع . .

كانت الأمم - قبل البعثة المحمدية - تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبات ، يستعان بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوابع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالهدايا والقرايين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التي يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله . . فجاءت نبوة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب في الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذي يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعاة ولا كفارة من سواه . .

فهي نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجم . . وهي نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأحوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعيها قبول الاقناع . .

إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم إذا اهتموا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
« سورة الاعراف آية ١٨٨ » .

نعم . . ولا إغراء ولا مساومة على جزاء بين الأخذ والعطاء :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا بِمُؤْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾
« سورة الانعام آية ٥٠ » .

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبي الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته . وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء إلى بينات الإقناع :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾
« سورة الحجر ١٤ - ١٥ » .

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنًا في تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على -بلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المستول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

فنبوات بنى إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم. وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الإنسان بعده محتاجا أشد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الإنسانية قبل أن يوجد الإنسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين إخوانه من البشر في عبادة إله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه في موازينها بعمل يمينها . .

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح في حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الإنسان العاقل المستول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
 « سورة البقرة » ١٦٤ .

* * *

إن قيام النبوة على إقناع العقل المستول بآيات الكون ، قد اختتم سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعذر الإسلام إنسانا يعطل عقله لطبع السادة المستكبرين أو لطبع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾
 « سورة النساء آية ٩٧ » .

* * *

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ الْأَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾
 « سورة سبا ٣٢ » .

* * *

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾
 « سورة التوبة ٣٤ » .

* * *

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « سورة التوبة ٣١ » .

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إن كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
« سورة النحل آية ٢٤٣ »

فإذا سمى ختام النبوة باسمه الحق في تاريخ الإنسان ، فاسمه الحق أنه هو فاتحة عهد الرشد في حياة الإنسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذي أخرجه القرون الوسطى بسبعة قرون .

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره في « عصر العلم » فلا يفهم منه إلا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبي على من بعده ، ويسبق هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبي ، كيفما تصوره الناظر إليه على حقيقته أو على دعواه . . فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبي أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينبئ سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهي طيعة منقاد بين يديه . . فإن جاز في حقه هذا « الحكر » المغتصب ، فهل يجوز في حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله إياه ، وقدرته على إخلاف دعواه ؟

إن اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير في عقل يطبق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم ، ولو كان احتكار النبوة باعث النبي إلى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها ادعاء النبوة أصلا وهي لا تخول النبي ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيب المجهول من مشيئة الله .

ولكن الإيمان بالعقل المسئول ، هو الباعث البين الذي يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين على الضمير وان انتظامه كله على هذه السنة المتفقة هو الآية الناطقة بإرادة الله .

رُوحٌ وَجَسَدٌ

عقيدة الروح إحدى العقائد الغيبية في القرآن . . والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس الدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان ، ولكن الفضيلة الأولى في عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المستول ، وهو يؤدي حق التمييز وحق الايمان والإسلام : لإسلام الأمر كله إلى الخالق المعبود . .

وعقيدة الروح إحدى العقائد « الغيبية » التي نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الإنساني أن يؤمن بعمله القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الإيمان بأنها من علم الله . .

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشري في القرآن الكريم نقيضة من النقائص التي تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخليقتين : خلقة الإنسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام .

فالروح والجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف في مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك . . وعلى الله قصد السبيل .

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ۞ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلٰلًا طَيِّبًا وَآتَقُوا اللَّهَ اَلَّذِيْ
 أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ ۸۷-۸۸ ۞

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف في إنفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أُنْحَرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾
« سورة البقرة ١٧٢ » .

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾
« سورة البقرة آية ٢٦٧ » .

* * *

ومن تمكين الإنسان في الأرض أن يتنقى فيها معيشته ويسيم فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد في شيء من خيراتها يخرجها لنفسه أو يخرجها له الأرض من فضل ربه :

﴿وَالْحَبَلِ وَالْإِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكُبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
« سورة النحل آية ٨ - ١١ » .

* * *

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب في هذا موجه إل بني آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الإنسانية ، ومن تمييز الله لهذا الإنسان على سائر الحيوان :

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾
«سورة الاعراف آية ٣١ - ٣٢»

* * *

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾
«سورة الاعراف آية ١٠»

* * *

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الإنسانية يحار فيه العقل وتمزق به أوصال الضمير .
وقوامه في خطاب التبليغ للإنسان من بنى آدم كافة :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾
«سورة القصص آية ٧٧» .

* * *

فليس السعى في سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس في القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات في العقيدة يوزع « الذات الإنسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هي العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، في غير إسراف ولا جور عن السبيل :

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة النحل آية ٩)

إن القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائص التفكير ، ولا ينجيه من نقائص التكليف وحسب ، أو من نقائص الحيرة بين العالمين في حقائق الدين ، ولا مزيد .

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى . .

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر وذنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفوها وجود ولو أشرق عليها عالم النور .

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم به بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا - في الدين والعلم - من عزل أصيل بين الصفاء والكدر ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام . .

إن هذا الاعتساف في التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان .

إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء ، من معدن واحد ، وأن الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع المنطلق ينعقد ويتقابل فإذا هو حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك في خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان . .

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقولون عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟ سيقولون علما ما قال به قارئ الكتاب إيمانا حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

« سورة الاسراء آية ٨٥ » .

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الكون . .

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الإنسان . . ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهي هو العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنفعل Pothetikos ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف . . فعندهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور ، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلوطين أن العقل الالهي فيض منعم صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاههم الصوفية . .

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العضوية جميعا ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التي تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبيها من الإرادة أكبر من نصيب الجهاد وأصغر من نصيب الروح ، فلئها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه . .

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، والإنسان له نصيبه من العقل . . ولكنه دون العقل الفعال فى جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التي تنمو وتلد وتزيد على درجات . .

إن هذا الاختلاف بين هذه القوى في مصطلح الحكمة اليونانية ، وفي لغة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية إلى كثافة المادة ويقاس من ناحية إلى المثل الأعلى ، وهو الله .

وقد يقاس الكمال في مصطلح الحكمة اليونانية إلى الجوهر بمقدار ارتفاعه ، وإلى المادة أو الهوى بمقدار هبوطه . .

ولكن كمال هذه القوى في لغة القرآن مقيس إلى كمال الله جل شأنه . . فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية وأدناها وأخسها ما كان أبعدا من تلك الصفات . .

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت في الكتاب المبين ، قد نتبين أن « الروح » هو أقربها إلى الحياة الباقية وأخفها عن المدارك الحسية ، وأنه الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر الوجود المطلق . . لا قدرة للعقل الإنسانى المحدود على الاحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

«سورة الإسراء ٨٥» .

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم ، فالراجع أن النفس أقربها إلى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزدهقها القتل ، والقوة التى تحبس النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة . . فهى القوة التى تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين القسط يوم القيامة . .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾

«سورة الزمر آية ٤٢»

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾

« سورة الانعام آية ٦٠ »

وإذا ذكر قتل النفس « في القرآن » ، فلأنما هو قتل الانسان أو الناس على حسب الخطاب إلى الفرد أو الجماعة :

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

« سورة المائدة آية ٣٢ »

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ « سورة النساء آية ٢٩ »

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ ﴾

« سورة البقرة آية ٨٥ »

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

الْمَأْوَىٰ ﴾ « سورة النازعات آية ٤٠-٤١ »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فلأنما هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات ، وهي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقضي بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أفعالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب إليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية إلى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وإن لم تتعدد في مصدرها المعلوم أو المجهول .

وقد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة .

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » .

﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ « سورة يوسف آية ٥٣ »

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ « سورة الشمس آية ٧ - ١٠ »

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهي النفس التي يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ « سورة القيامة آية ١ - ٢ »

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعداد :

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ ﴾ « سورة القيامة آية ١٤ - ١٥ »

وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ « سورة الفجر آية ٢٧ - ٢٨ »

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى . فتجميعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما تقدم خاصة

الكائن المكلف المستول

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ﴿ ﴾

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾

« سورة الانبياء آيه ٤٧ »

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ « سورة آل عمران آيه ٣٠ »

﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

« سورة الانفطار آيه ١ - ٨ »

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ « سورة التكويد آيه ٧ - ١٤ »

وجملة ما قيل في معنى « النفوس زوجت » أنها تقرر بمقاماتها وأعمالها أو تضم إلى أشباهها وقرنائها .

فحساب النفس من حساب الإنسان ، ولكن الذات الإنسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فإن الإنسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم الإنسان منه إلا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح . ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الإنسانية ، وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول ..

فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله .. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام .

الْأَمَانَةُ

وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد الثقة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى في آية من «سورة البقرة» بوديعة المال وما إليه . إذ قال تعالى في سياق وثائق الديون :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكُنْ بِبَيْنِكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ءُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾

«سورة البقرة آية ٢٨٢ ، ٢٨٣»

ففي هذه الآية خصصت الأمانة بما يؤتمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ «سورة البقرة آية ٢٨٢»

وكل ماورد في غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام وإن ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ إلى جميع المخاطبين بآيات الكتاب .

جاء في سورة النساء :

﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ بِأَمْرٍ أَنْ تُوَدُّوا أَلْمَنْتَ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ «سورة النساء آية ٥٨»

قال الامام الزمخشري في الكشاف : «الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة .. وقيل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، وذلك إن رسول

الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : « لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه » فلوى على بن أبى طالب رضى الله عنه يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فتزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعلى : « أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا » . وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. »

ومضى الامام الزمخشري فى تفسير الآية إلى أن قال : « وقيل هو خطاب للولادة بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد »
وفى الجلالين أن الآية « وإن وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع » ..

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « إن الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة وأن النبى عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول إن الأمانة « كل ما أؤتمنت عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ، وبالجمله كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وإن الخطاب موجه إلى الناس عامة وإلى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد فى سورة المؤمنين :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ « سورة المؤمنون آية ٨ »

فهى تشمل كل ما يراعه الانسان من عهد وذمة . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأنفال ، وعلى هذا المعنى - إجمالا - يفهم كل تبليغ خطوب به الناس عامة وإن تنزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الأمانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من

خلقه ، فهي أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة إلى أحكام التبليغ ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التي فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب .. وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليفة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التي تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها إلا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلوم جهول .. ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التي تهديه إلى عملها .. وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود . وإنما يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالىن

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
« سورة الأحزاب آية ٧٢ »

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾
« سورة الإسراء آية ٧٠ »

« وكثير من خلقنا » فى هذه الآية تشمل كل مخلوق لم يكن أهلا لأمانة الخبير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيه من فطرة التكوين .

* * *

ولقد وضع معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل اللبس أو

الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف .. فمن لم يذكره من المفسرين بنصّه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهي ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذى فهم من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام إلى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشري المتوفى فى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجادات وإبائها وإشفاقها مجاز ، وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدها »

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستائة للهجرة : « إنا عرضنا الأمانة » أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، وأعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منبهين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ... »

قال الامام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة . « لم يكن إباًؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما أن هناك السجود كان فرضاً ، وها هنا الأمانة كانت عرضاً ، وثانيهما أن الإباء كان هناك استكباراً وها هنا استصغاراً : استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ... وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهايم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل . قالوا :

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين . إذ له لذات بأمور جزئية فنع منها لتحصيل لذات حقيقته هي مثل للذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته . وأما غيره فإن كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فإن الخطاب يسمى مكلفا كما أن الخطاب مكلف ... » .

وقال الإمام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ... عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها .. فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب .. ومما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ... وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . »

« قال مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وغير واحد أن الأمانة هي الفرائض .. ثم أورد الإمام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها ، وعقب عليها قائلا إنها كلها ، لاتنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها »

* * *

وجاء في تفسير الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « إنا عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها ، من فعلها له الثواب ومن تركها عليه العقاب .. » وقال الإمام محمد جبال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة : « .. عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ،

واثمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشئ من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام - التي هي مثل في القوة والشدّة - مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأين قبولها وأشفقن منها ... أما قوله تعالى : وحملها الإنسان أى عند عرضها عليه ، إما باعتبارها بالاضافة إلى استعدادها ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق - أى تكلفها والتزامها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى .. وقوله تعالى : إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الجمل وغايته للإيدان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى إنه كان مفرطا في الظلم مبالغا في الجهل ، أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة... »

* * *

ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هذه المعاني ، ثم نقل تفسير الفيروزبادى لمعنى حمل الأمانة ، إذ قال : « فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ، أى أبين أن يحنها وخانها الإنسان » قال : والإنسان هنا هو الكافر والمنافق... » .

* * *

ولا نختم هذه المكتسبات قبل أن نعود إلى الاستدراك الذى بدأناها به ، وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وأن الاختلاف على المذام التى ترتب عليه إنما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمذام وما عداها ، أو على معنى الوقوع في المذمة بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد في أمرها .

إلا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى إذا روجعت الآيات التى ورد فيها ذكر صفات « الإنسان » بمعنى جنس الإنسان فإنه يذكر بهذه الصفات في مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع والضرع والتفضيل على كثير من خلائق الله ، وذكر

ظلم الإنسان وجهله مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر في غير هاتين الآيتين بقوله للخير والشر مع الإيمان بالجزاء والتذكير بخلق الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذلك وفيه الإشارة إلى أمثاله من الآيات :

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوَاةَ آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝ ﴾ « سورة الاسراء آيه ٩ - ١٢ »

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الإيمان بالجزاء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الإنسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام .

التَّكْلِيفُ وَالْجُرَّةُ

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين في قضية القدر ، وفي قضية الايمان ، وفي قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال في فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر إلى شرط « الطاعة » فلا جرم يفضل عنه ولا ينتهي فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا عن الايمان ..

في القرآن خطاب متكرر إلى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع إسناد الارادة إليه في استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة إلى الله ، وتقرر أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق المقدر الذي يقدر الهداية والضلال ، ويعطي كل شيء خلقه ويهديه وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وإن لم تبلغ في الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير .

* * *

﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« سورة البقرة آية ٢١٣ »

* * *

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۚ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأْتُمْ تَعُودُونَ ۚ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾

« سورة الاعراف آية ٢٩ - ٣٠ »

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾

«سورة الأعلى آية ١ - ٣»

* * *

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

«سورة ابراهيم آية ٤»

* * *

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝﴾

«سورة ابراهيم آية ٢٧»

* * *

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فعناها الظاهر الذي لا تأويل فيه أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذي يخلق عباده ويخلق ما يعملون .

أفي هذا تناقض في حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر إلى النصوص ، أو إلى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص ؟ ..

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفي التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذي يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال ..

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والارادة ..

وليكن التكليف إرادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء ..

فكيف يتصور العقل إرادة الانسان على كل احتمال ؟

إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود ، لأن إرادة إنسان واحد تنطلق
بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواء ، وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بإرادته المطلقة
منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ ..

أما أن يوجد الناس جميعا بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هي
الإحالة العقلية في الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق ..

فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم
شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة إلا أن
يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين في العمل الصالح الذي يساقون إليه ،
كما تساق الآلات ، فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للإنسان على
الجماد المجرد من الحس ، فضلا عن الحيوان ..

فإذا وجب تكليف الإنسان ، فالعقل الإنساني لا يوجبه إلا كما ينبغي أن يوجب
على حالة واحدة لا سواها ، وهي حالة الإرادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغي
أن تودع ، وهي لا ينبغي أن تودع إلا على هذا الفرض الذي يدعو إليه القرآن ..
إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العقل المدرك
المميز الذي يهتدى بإذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال إن الحرية التي تخلق ليست بحرية .. فإن الحرية غير القيد سواء كانا
مخلوقين أو مطبوعين ، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما
تتمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس ، وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فإن صنعنا للآنية
الذهبية والآنية النحاسية لا ينفي نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآيتين المصنوعتين
وليس في العقل شيء يسمى حرية مطبوعة تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من
جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ..

* * *

وإذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها إرادة ، فلنرجع إلى العقل
لنرى كيف يتصورها العقل - أي عقل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل
احتمال ..

إنها لا تكون سواء في كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها

خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هي بشيء ، إذ ليست الموجودات التي لم تميز ولم تنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هي عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تميز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولا عقاب
فإذا وجد المخلوق حرا ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف في حكم العقل
كيفما كان حكم النصوص

وإذا قضى العقل بهذا دون سواء ، فالعقل هو الذى يتصور إرادة الله وإرادة الانسان على احتمال واحد دون سواء ..

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان إذ كان كل ما عدا حرية « الايمان » فرضا غير معقول بل غير موجود

* * *

ونحن إذن في حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف إذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائص الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل واعتماد العقل على الايمان
والانكار الجراف يوقع العقل في نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من كل تعطيل ..

ولنما تساورنا الحيرة في مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا من المتدينين والمنكرين أن الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله - إذا تقبله - وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه النظر وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع

هذا إيمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا إل طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب .. فلما عقل ولا تصديق ، وإما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

* * *

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان ..

إن الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله وإبطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان لأن إنكار هذه الضرورة نقیضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل إلى الايمان بوجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الايمان ولزومه - منطقاً - قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذى يصح أن تؤمن به هو وجود كامل أبدي ليست له حدود ..
والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل المحدود ..
فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ..

هى إحدى اثنتين .. إما إنكار جزاف ، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل .
والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيض ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من الانكار .

* * *

إن الموجود السرمدي الكامل المطلق الكمال هو الإله الذى نريده بالايان ، وهذا هو حقه فى إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالموجود المطلق الذى ليست له حدود ..
أفبقول العقل إذن : « لا إيمان بهذا الموجود المطلق لأنه الموجود الذى يصح فى العقل أن تؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول إيمان بغيره ؟ ..
العقل لا يقول هذا ..

والعقل إذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه إيمان ..

إن العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالذكر والتبشير ، وهو المسئول أن يستمع إلى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وإرادة المخلوق . .

أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ

خيل إلى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف إلى الياء ، وأن تعريف شيء من الأشياء بأنه من عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه وإعادة بحثه ثم إعادته إلى الاصطلاح بمبدول جديد .

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة ، مقياسا لما عده من خلائق هذا العالم ، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر إليه كلما تبدل النظر إلى الوجود بأسره

ولم يتبدل النظر إلى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية ، حتى خيل إلى كثير من الفلكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ..

وقد أعيد النظر إلى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التي عرفوها باسم الأوائل Primates وهي في الذروة من طبقات الحيوان اللبون .

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيدا في تقسيمه إلى عناصر ، وإلى الرجوع بكل عنصر منها إلى نوع من القردة الأوائل ، كما سيجيء في الكلام على آراء النشويين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا إنه نوع واحد لم يرتابوا في تقسيمه إلى « عناصر » أو سلالات تكاد - لولا التناسل فيما بينها - أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم إن تجارب العلم لم تثبت إمكان التناسل بينها ، ولم تنف إمكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القردة المشابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الإنسانية كلها قابلة للتوالد فيما بينها، كما يتوالد ذكور الحيوان وإناثه من النوع الواحد بغير عائق للنمو في دور الحمل ودور الطفولة ..

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآريه » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى خيل إلى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الويل ، لأنه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكرحق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان ..

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب « قرن من مذهب دارون » : « إن التفرقة بين عناصر النوع الإنسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الإنسانى إلى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكيتين ، ويسكن الآخر فى إفريقيا وبلاد الملايا والقارة الاسترالية . فإذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان إلى بيضاء وصفراء وحمرء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين إلا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » .

فحوى هذا أن فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام

* * *

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح إنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
«سورة الحجرات آية ١٣»

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء «أما» كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتميزت بهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

* * *

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء في الآية الشريفة ، فلأنما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف «الانسانية» كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعي والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التي تتفق عنها ضرورات العيش والدود عن الحياة فينجم عن هذا ما لا بد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة ، وتزداد «الانسانية» عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بحالقتها ، واقترابا فيما بينها ، وتضطر إليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَلَوَاتِكُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾
«سورة الروم آية ٢٢»

وهذا هو حكم القرآن في وحدة بنى الإنسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
«سورة يونس آية ١٩»

* * *

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾
«سورة البقرة آية ٢١٣»

* * *
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾
«سورة هود آية ١١٨»

* * *
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمْ﴾
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
«سورة المائدة آية ٤٨»

* * *
إن هذه الوحدة في صلة الانسان مشدودة الازر بالوحدة بين الناس كافة في الصلة بالله - ربهم ورب العالمين - الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب إلى التقوى واستباق الخيرات :

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ «سورة البقرة ١٦٣»

* * *
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾
«سورة الكهف آية ١١٠»

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾
«سورة الأنبياء آية ٩٢»

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَتَمُّ مَسْلُومٍ﴾
«سورة الأنبياء آية ١٠٨»

ولقد كان من الحق في ذمة العلم أن يترى علماء المقابلة بين الأديان طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي تاريخ القيم الأخلاقية ، بل في تاريخ الحياة الإنسانية من مطلعها في ظلمات الماضي المجهول إلى هذا الأوج السامق الذي ارتفعت إليه بعد ألوف السنين ، وما كانت لترتفع إليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة في رب واحد هو رب العالمين ..

إنها لم تكن كلمة في موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول في تسبيح المعبود كيف يقول ..

إنها لم تكن لفظة من لفتات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد في تيه من السحر والكهانة ، ثم لا تبالي أن تعود إلى خلفها كما تعود إلى أمامها ، على غير هدى .. لو كانت كذلك لذهبت في غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ بها أو استمع إليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الإنسان على سواء لم يكن بالغه لو لم يعتدل إليه في مطلع الطريق ، وهيئات - على غير هذه القبلة - أن ينتظم للإنسان مسلك معقول إلى الرشd والضمير ..

إن قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الإيمان برب هو رب هذا القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب لا ينظر إليها ..

وإن هذه القيم لغو عند إناس يحق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط عليهم الغفران وما صعدوا إليه ويتقلبون بين النعمة والنعمة بغير جريرة من إثم وبغير شفاعة من توبة وبغير نية للإساءة ولا نية للتكفير .

إن العالم الإنساني كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب العالمين ، وإن قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وإن « الإنسانية » الجامعة شيء لا وجود له قبل أن يوجد « الإنسان المستول »

وإنما توجد « الإنسانية الواحدة » ويتساوى الإنسان والإنسان مع الإله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم إلى الخيرات .

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة ، وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والإنسان التقي مرة أخرى هو الإنسان « الإنسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل للإنسان عند رب العالمين ؟
لو شاء فلاسفة الأخلاق لعللوا ما هى هذه التقوى ، وعللوا حقا أن موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « التقوى » التى يحسبونها « تسييحة » من تساييح المعابد ، ويخيل إليهم أنها أفضل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل . . . فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات .

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على القدم ، وللمجدود على المحروم ، وللغنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل - بالإيجاز - على كل مفضول وما من ميزان آخر ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، إلا أخذهم فى طائفة غيرها .. بل فى أكثرها وأحوجها إلى الموازنة والتفضيل .

فليست « جملة » الإنسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فإن العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء ، ولكنه قد يؤوب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل

راجع وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ولكننا إذا حكمنا بأن إنسانا يفضل إنسانا بالقدره على تحمل التبعات ، فهو الراجع لا وراء في كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الإنسان ، وكل قيمة تحسب للإنسان فهى داخله في هذا الحساب ، فإن جاز أن تحمل ويبقى الإنسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهمة حقا ولو كان لها شأنها في غير هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ « سورة الحجرات آية ١٣ »

صدق الله العظيم .. إنه هو القسطاس الذى ينشئ « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة وإلهاما من الوحي الإلهي وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحي الإلهي في هذه المساواة أنها قد شرعت للانسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم وإجراء من « إجراءات » السياسة في إبان الخطر المطبق خيفة من ثورة النفوس وتنافسها على عدد الأصوات في معارك الانتخاب .. فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحي رب العالمين . ولكنها لم تنشأ في حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة تملق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم في القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشئ يسمى الديمقراطية ولا رضح « الديموقراطيون » المتأخرون بشئ لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات . ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام في القرآن هي قصة الانسان الأول . .
خلق من تراب . . وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والارادة .
وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلقت الأرض ، من ذى حياة وغير
ذى حياة . .

وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لارادته وانتصارا
لعقله على جسده . . .

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيا القرآن في هذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢)
﴿ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢﴾
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴿٣﴾ (سورة السجدة آية ٦ - ٩)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرٍ مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

(سورة الحجر آية ٢٨ - ٣١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَمْنَعُ نَسِيجَ بَعْثِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

يَا سَمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٤﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
فَاتَخَرَّجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
﴿٣٩﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٠﴾

(سورة البقرة آية ٣٠ - ٣٨)

هذه قصة « نشأة آدم » في القرآن .

وهي إحدى قصص الخلق والتكوين، وفي هذه القصص جميعا من أمر الغيب ما
هو حق الإيمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم
منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا في حياة الانسان
وسائر الأحياء .

ولباب القيم جميعا إن الفضيلة العليا إدارة وتجربة ، وليست منحة يبطل فيها
التصرف ويمتنع فيها التمييز ..

فإذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه
مصروف عنها ، ومخلوقا تأتي منه الحسنة كما تأتي منه السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا
يريدهما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة

فى سبيلها . فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة ..

وعلىنا أن نعمن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ الإنسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين » على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال الفرض والتقدير .

إننا نعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الإنسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها وزنا حتى أرى على مئات الأطنان ، ثم فئيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير التى تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن خلائق العقل التى تفردت فيها العقول عن الأبدان ..

والعقل الإنسانى يأبى أن يصدق إن هذا الكون خلو من معدن العقل إلا أن ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الإنسان .

أقرب إلى تصديقه - ولا نقول أقرب إلى إيمانه وكفى - أن سياسة الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان إلى غاية ما تبلغه من الضحامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز .

تلك سياسة الخلق التى أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم مداها من الرق فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التى تنفجر عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان الموسوم بالإنسان ..

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم .. إن النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء إلى الخلاق الحكيم .

ولايأبى القرآن على مؤمن به أن يرسم مسلك الحياة من المبدأ إلى المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فإنه لعلى الجادة فى كل مكان يردها إلى الأرض ولا يقطعها عن الله .

الكتاب الثاني

الإنسانُ
في مذاهبِ العالمِ والفكرِ

عُمرُ الإنسان

نبدأ هذه الفصول عن الإنسان في مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة النوع الإنسانى مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، في تقرير مكان الإنسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء . ونرى أن هذا المذهب أول المذاهب التى يتعين بحثها هنا ، لأنه أخرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذى يقصر على موضوعه الأصيل ، فإنه ما كاد يظهر ويتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون باعادة النظر في موضوعاتها للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده .. فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التى جاء بها النشويون ..

وسنبسط القول في هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع في حيز هذه الرسالة ، لأنه - على كل فرض من الفروض - دعوى في قضية الإنسان يستمع إليها ولا تهمل كل الأهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها - كما نعتقد - أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التى وصل إليها النشويون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة إلى حين . ولنبدأ بالكلام فيما يلى عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شىء منه وبين شىء مما ورد في آيات القرآن .

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الإنسان ، ولا نعلم أن ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليفة غير الديانتين البرهية واليهودية .

والديانة البرهية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من

السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التي تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون
بغير أجل معروف في البداية أو النهاية . وعند البرهمنين أن الكون فلك كبير ، يتم
دورته المتكررة مرة في كل ثلثائة وستين ألف سنة . وقد يزداد هذا القدر أو ينقص في
تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهي
عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى ، كلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من
دورات الوجود السرمدي عودا على بدء إلى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهي على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر »
المتوفى سنة ١٥٩٦ ، تدل على ابتداء الخليقة في : أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل
الميلاد . وقد شرح أسانيده التي بنى عليها هذا التسدير في كتاب ضخيم سماه
السجلات القديمة والعهد الجديد Annales Veteris Novi Testamenti
وأضيف هذا التاريخ إلى نسخة التوراة التي ترجمت على عهد الملك « جيمس »
وبها مشها تواريخ الحوادث المذكورة في متونها .

وظل هذا التاريخ معتمدا في طبقات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد
الأخير . ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير السنين
والأيام التي وردت في صدد الكلام عن الخليقة بمقادير غير مقادير السنين والأيام
الشمسية ، واستندوا إلى أن اليوم الشمسي وإن السنة الشمسية تساوى مدة دوران
الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة الستة
يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت في اليوم الرابع كما جاء في الاصحاح الأول
من سفر التكوين . .

« وقال الله : لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات
وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض ، وكان
كذلك . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر
لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على
النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء
وكان صباح يوما رابعا »

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شئ يدعوهم إلى تقدير عمر للخلقة يزيد على ستين قرناً بحساب السنين الشمسية ، ثم تابعت الكشف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين إلى بعض الكواكب أنهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم في قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محقة لا تقل ثبوتاً عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء في الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه في صندوقه قياساً لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياساً للسنين والشهور وقد اشتركت العلوم جميعاً في اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات فقام النباتى عمر الشجرة بمحقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو بأشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعاً إلى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن في القدم حتى تحسب بمئات الملايين .

* * *

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ بقياس الكربون المسمى بكربون (١٤) تمييزاً له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى . . فان العالم الأمريكى « ويلارد لى » Willard Libby صاحب الدراسات

المأثورة في الطبيعيات الذرية ، وجد - قبيل منتصف القرن - أن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل في الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان ، فإذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجري ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي تحللت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فإذا كان هذا المقدار نصفاً ، فقد مات ذلك الكائن الحي قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان ذلك المقدار ربعاً فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفاً ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذي يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير .

وهذه المقاييس الكثيرة التي تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالي بالساعات الرملية والمائية - قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعاً إلى ألوف القرون بدلاً من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية وقدرها للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستائة ألف سنة ، وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التي وجدت في الأقاليم الغربية من القارة الأوربية ، وإلى الطبقة الوسطى بقايا الإنسان التي وجدت في أواسط القارة ، وأقدم من هذا بقايا الإنسان التي وجدت في القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها في القدم أو أقدم منها بقايا الإنسان في أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التي وجدت في القارة الافريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكي » Leakey في شهر يوليو سنة ١٩٥٩ - ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم في صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى

« أولدفاي » بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى Zinianthropus ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكه وضروسة ، ويقدرّون تاريخه بنحو ستائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجرو زمن تكوين الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان .

وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن إيغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء .

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان إنسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصية المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للارادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . . .

* * *

أما الانسان فى مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعنى بانسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية فى مصالحه المشتركة . وقد وجدت فى وادى النيل آثار الانسان المقيم الذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض فى تدبير طعامه وأسباب معيشتة ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى الطلاسم السحرية أو إلى أشكال الزينة ، وإنما - على هذا - لتعتبر مقدمة لازمة لنشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان التنازع

* * *

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ الانسان وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل .

كان هيرودوت - الملقب بأبي التاريخ - يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى في كتابه الثاني عن كهنة الفراعنة أنهم يقدرّون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلاثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت في مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في التقويم القديم وهذه السنة الشمسية في تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، ولا سبيل إلى إدراك هذا الفرق في أمة تجهل الرصد والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور في تاريخها الطويل ^(١) .

* * *

ومما يذكر ، ولا يهمل ، في صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التي سماها القارة الأطلسية ، وذكرها في كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتياش » Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا في الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التي يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار في مجاهل الماضي المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت في موضع المحيط الأطلسي بين شماله ووسطه ، وأنها زالت في إحدى الكوارث الكونية التي قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها إلا بعض الجزر البركانية .

(١) يرجع إلى كتاب فيلوكفسكى Velikovsky عن العوالم المتصادمة .

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف
 اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية
 بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم
 الجديد كما يتمناه

إلا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا في هذه الرواية منهجهم «التقليدى» في كل
 رواية تخلفت من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة مع أساطير
 الأقدمين ، فحسبوا جملة واحدة في عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له
 مسوغاته القوية في مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف
 والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة
 العلمية خليف أن يوطد الاقدام على بر الأمان ويسمح للباحث بالتردد في الانكار كما
 سمح له من قبل بالتردد في القبول ، بل بالتعجل إلى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين
 مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشف الكثيرة التي تعاقبت
 خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل
 الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضرب بالبحث من القبول بغير
 برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة
 التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم
 يقد البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات .

وإذا حق لهذه «الأسطورة» أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من
 شفاعتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينسب الباحثين
 المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه
 الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولا
 وعرضا بإزاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم
 يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات
 المفقودة من عالم الأسرار إلى عالم الآثار وطالعنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير

المحيط الأطلسي ، ولكنه يقابله في الموقع ويشبهه في الظواهر والأغوار ، وتلك هي قارة « مو » Mu التي ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد chruvird كتابيه باسم « قارة مو المفقودة » و« أبناء مو » وروى فيها أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد . ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط .

* * *

وعلى عهدة المؤلف نقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه

« إن قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع في المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها إلى الجنوب قليلا من خط الاستواء .. ويقدر طولها من الشرق إلى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثني عشر ألف سنة فابتلعها لجج المحيط وغاص معها إلى قاراه نحو ستين مليون إنسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التي يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمه والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت في جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتوافر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى في سبل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم نصل إليه حتى الآن في حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهي مرحلة قصيرة بالقياس إلى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند إلى بابل ومصر إلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد في بعض تفسيراته

على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التي انتهى إليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنده في كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارئ لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدھا وبالأدلة التي تؤكد معانيھا ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد في الأزمنة الماضية إلى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التي نقلت من قارة «مو» نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع تاريخهما على الأقل إلى نحو عشرين ألف سنة إذا كانا من مخلفات الحضارة التي بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان وقد يرجع إلى آماذ أبعد من ذلك جدا إذا كانا من مخلفات «مو» التي نقلت إلى بلاد القارة الآسيوية ..»

* * *

والجديد في قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابي القارة المفقودة وأبناء «مو» أنها تحدثنا عن الانسان « المتدين » في تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التي تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشويين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليفة ، وعن نكبات الانسان في العصور الغابرة ، كما جاءت في الآثار الأولى وفي كتب الأديان الباقية ، وغاية ما نقوله عن تأكيدات المؤلف وتخميناته معا أن مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل في سياق يعرض لتاريخ النوع الانساني ولما كان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التي تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية .. والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الإيمان بالخالق ، في كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولامناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون في تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرون القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار .. فقد تكون عوامل الطبيعة في مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية .

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التي تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل إلى غير نهاية ، ولابد للقاتل بتعميم التطور من الفصل في مسألة البداية والنهاية .. وهي لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق في جملتها .

فإذا كان تطور الأحياء يرجع إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع إليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر إذا قيل أن الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟ إن أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) الذي عرف التطور بأنه انتقال من البسيط إلى المركب ، وقال عن تطور الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا يحدث التغير للبنية ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وترقى في وظائفها تبعا لاتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى فلم يدخلها في حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية إلى قسمين بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية : أحدهما حقائق الأشياء في ذاتها وفي أصولها الأولى وهي القسم الذي لا يدرك ولا يتقبل الإدراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء في ظواهرها المحدودة وهي التي يستطيع عقل الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور إما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام .

وأصحاب هذا الرأي من القائلين بالتطور العام - على ترددهم في مسألة الأصول الأولى - لا يتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفوتهم أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات الكونية التي تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وأن إطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضوية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التي تحيط بتلك الكائنات وتعمل فعلها أو تنفعل معها بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلمون بتلك المؤثرات الكونية ويتركون البحث فيها عجزا عن الوصول إلى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الإنسانية عند الآثار التي يدركونها ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسلكونه في عداد « المجهولات » التي لا تدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر في تقسيم المعرفة الإنسانية بين مدرك وغير قابل للدراك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوسى هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف الألماني عمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) في الظواهر والحقائق أو في الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء في ذاتها .. فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهما - وهو فريق المؤمنين - أنها من صنع الخالق الحكيم ، وأن القوة التي تصدر عنها آثار التطور في الكون كله منذ بدايته لا بد أن تكون « قدرة » فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس .

والفريق الآخر - وهو فريق الماديين المنكرين - يكتفى من التفسير بذكر العوامل التي ينسب إليها التأثير واعتبارها طبيعة في المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التي وجدت عليها .

فإذا احتاج الفيلسوف المادى إلى القول بالحركة الدائمة ، قال إنها عادة المادة في أصل تكوينها ، وإذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال إن المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، وإذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض .. فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له في وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل في ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم إليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء ..

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص في كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شئ فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف إن المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنتقل من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها .. ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه في التطور ليصل منه إلى نتيجة في المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره .. ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته في إحدى النبوءتين بأقوى من حجته في الأخرى .

* * *

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات يميلون - على الأغلب الأعم - إلى القصد في التفسيرات والتعليقات ، ويتجنبون البحث في الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعي الحديث .
 وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وأنها ترجع جميعا إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي الخلايا البدائية ..

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشويين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه في فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وإنما الجديد منه إسناده إلى أسباب العلوم الطبيعية التي شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمي على مناهج العلماء المحدثين ..

قال به العالم النباتي السويدي كارل لينوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) Carl Linnaeus الذي عنى بتصنيف الأنواع والأجناس في دراسته للنباتات وبنى على هذا التصنيف رأيه في أنواع الاحياء على التعميم .
 وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع في البيئة العلمية الانجليزية ، فأنشئ المجمع الليني في لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة إليه .

وقال به بوفون العالم النباتي الفرنسي (١٧٠٧ - ١٧٨٨) Buffon الذي ألف كتابه المفصل عن التاريخ الطبيعي بمعاونة الأستاذ دوبنتون Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يماثله في تصنيف أنواع الحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالمين ارasmus دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ - ١٨٠٢) جد دارون الذي ينسب إليه مذهب النشوء والتطور ، فكان رائدا لحفيده في القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ، وعاش معه في عصره الم. الفقيه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤ - ١٧٩٩) Lord mon bodda صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيها » وكتاب « ما وراء الطبيعة في العصور القديمة .. »

ومذهبه في تطور الإنسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور اللغة . وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين ..

ويتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعي في القارة الأوروبية من شأها إلى جنوبها كان قد تمهياً لدراسة الحياة والاحياء على أساس الوحدة في قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصوراً على السويد وفرنسا وإنجلترا ، بل صبح من روايات مؤرخي العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ، وإن كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخله الفخر بالسبق العلمي بين الأمم الأوروبية .

ولكن مذهب النشوء لم يُعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسي لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين . شارل دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢ - وزميله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ - ١٩١٣) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين في اعتبار العلماء إلى اليوم .

* * *

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التي تنتقل بالوراثة متى تغيرت في تكوين الأفراد ..

ففي رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارئ من طوارئ المرض والاصابة ، وأن الصفات المكتسبة التي تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذي لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض أنها - لطول قوائمها - كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول في أعقابها المتوالية .

والنشويون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على

بطلان هذا الرأي ببعض الصفات المكتسبة التي شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثي في الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من العمر غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد في طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك في ذرية الحيوان الداجن التي تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنانها أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فأنها تولد بأعضاء كأعضاء آباءها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها .

ويرى النشويون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذي مر على هذه المشاهدات - بالقياس إلى الآماد الطوال التي مرت على تطور الأنواع الحيوانية - لا يكفي للحزم بامتناع الوراثة على إطلاقها ، وأن إهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه - ضرورة - أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا في قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها .

ويلجأ النشويون - على رأى دارون ووالاس - إلى تعليل آخر لحدوث التحول في الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي ، مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها .

فالزرافة - عندهم - لم تنقل صفة مكتسبة إلى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت في الصفات كما يتفاوت الأفراد في جميع الأنواع ، وبقي أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ اعلى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعي عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ما عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسي عمله - مع الانتخاب الطبيعي - لأن الأفضل من ذكور الحيوان وإناثه يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه في الامتياز على سائر الأفراد .

وليس مثل الزرافة في رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل في رأى لا مارك ، لأن المعارضين عليه يقولون إن قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف

كما يبيد أنواع الحيوان التي تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وأن ذكور الزراف أطول أعناقاً - في الغالب - من إناثه ، فهي خليقة أن تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق . .

إلا أن الأكثرين من النشويين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سبباً كافياً لبطلان القول بالانتخاب الطبيعي . . فلو أن دارون نظر إلى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر إلى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على الجرى بفعل الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي في وقت واحد ، لأنه يفلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرتة ندرة المرعى إلى الانتقال من مكان إلى مكان ، وقد صح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض .

* * *

وبعد المقارنة بين الرأيين - رأى لامارك ورأى دارون ووالاس - يتضح أنها ينتهيان إلى نتيجة متشابهة ، وهي ضرورة القول في النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فإن لم تنتقل بعد اكتسابها في حياة فرد واحد فهي منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد إلى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطيء ، ولم يكن في ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشويين من قبله في تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك أن دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الإيجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول إن الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن إبادةها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدي إلى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه في تنازع البقاء وفي الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي ، أن تنتهي إلى نتيجة واحدة ، وهي أن الأحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وأن أسباب الفناء عجزت عن إبادةها كما أبادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هي في وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف في تفكير دارون وفي هذا الضرب من التفكير على عمومته . . فلإنها دليل على الأمانة الفكرية التي تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهي كذلك

موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وإن قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق . .

وقد كان خطأ النشويين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات) Genetics وظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chormosome فى نقل الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات إلى الأبناء .. فكل صفة لا تكمن فى الناسلة ولاحتويها صبغية من صبغياتها فهى صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج - أحد ثقات هذا العلم - إن الانتخاب الطبيعى - لأجل هذا - لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل نشأة المزايا التى تحقق الصرح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع البقاء ، ثم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعى فى المستقبل عند التفاوت فى تلك المزايا الموروثة بين الأفراد . وإنما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفى لاحداث التغيير المطلوب فى الناسلة وفى صبغياتها التى تنقل تلك المزايا بالوراثة وقد أمكن العلم بالخواص التى تنقلها كل صبغية من الصبغيات فى بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير فى الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال إن الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل إذا نفذت إلى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجئ كما يعللون الاختلاف الطارىء على النبات فى الألوان والأحجام والأشكال ..

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث فى أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدي التجربة فعلا إلى ظهور خاصية فى الحشرة تغير ذريتها فتخالفها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة إلى « مندل » صاحب التجارب المشهورة فى وراثة الحبوب . ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم الدرسفيلة *Drasophila* فإن تعريض الذبابة منه للأشعة يغير ذريتها ، فتأتى مخالفة لها فى لون

العين أو في طول الجناح . ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك في أجيالها المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب إلى الأعقاب . .

* * *

ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذهب قبل تقدم علم الناسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة الناسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل في تحسين صفات الإنسان الفكرية والروحية ؟ . .

إن النشويين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية وأجابوا عنه إجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى .

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ولا يعرض لجوانبه المميزة له في عقائد المؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأطوار التي تؤثر في جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التي يقرها له الدين . وهذه الأجوبة من النشويين ليست بالأجوبة الحديثة في بابها على ذلك السؤال القديم ، فان ابن سينا - مثلا - كان يقرر مذهب الطب في الأمراض التي تنسب إلى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة فيقول انه لا ينفي هذا الفعل ولكنه ينظر إلى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التي يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشويون جميعا على منهج بوفون ودارون أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين - وعلى رأسهم ارنست هكل - ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته إلى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتنزل في جذورها إلى القردة المذنبه التي تعيش في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية Marnasets وقلما تحتل الجوف في

الأقاليم الشمالية ، ومن دونها الليمور Lemuy قرد مدغشقر ، وهو موضوع في شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشويون القردة العليا - صعدا - من الجيبون إلى الأورانج ، إلى الشمبانزى ، إلى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها في درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين .. فأدناه ما كان اعتماد كلة على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج إلى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشويون أن « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المدنية ، وتندرج - صعدا - إلى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحوّل اليد إلى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار . ومحمل تلك العلامات أنها بواذر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالبة القدمين واليدين

ويذهب أحد النشويين المحدثين إلى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السنين ، وأن القردة العليا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت في الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك المرتبة بكثير أو قليل ..

وصاحب هذا رأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن إنسان جاوه الذى وجدت بقاياها المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها إلى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون إلى ما دونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى إلى أصول متعددة ، ولا ينجم كلة من أصل واحد .. فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد ، وزنوج إفريقية

والشيمبانزى والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء
فى الخصائص التشريحية ..

* * *

ومن المفارقات أن هؤلاء النشوثيين النساين لم يبلغوا بالقرد ذلك الشبه الذى
تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس
فإن تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسى ممسوخون عقلت
ألستهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى
يباعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة
النسب تحتاج إلى علم التشريح لالتقاط المشابه التى ترجع القول بوحدة الأصول
الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثر كيت - من أكبر النشوثيين المتأخرين - فى كتابه شجرة نسب
الانسان : « إن الأستاذ وود جونز لفت النظر إلى بقاء علامات كثيرة فى تركيب
الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القروء ، وأن هذه القردة العليا
وسائر القروء قد اختفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ولست أرى أن
هذه الشذوذات تستدعى تعديل النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها
ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فإن الكائنات الحية أشبه
بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها .. فالغوريلا
تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القروء ، بينما تقترب كبدا الأورنج
أشد الاقتراب فى تركيبها المتناسك من كبدا الانسان ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين
الحيوانين تحدرتا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبدا الحيوان »
ثم يستطرد إلى بيان الشبه بين الانسان والقردة الافريقية فيقول : « إن الانسان
له على جانبي تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها ..
ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هذا النمط
الإنسانى فى كل من الشيمبانزى والغوريلا ، وإن كانت الجيوب فى الغوريلا وحدها
قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا فى أنف سلف

الأورانج ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الأنف كله في هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا .. وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقرب استجابة إلى الانفعال بدم الإنسان من جميع الفقاريات .. وتبلغ العلامات المشتركة بين الإنسان وكل من الشمبانزى والغوريلا نسبة إلى سائر العلامات التي أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار في المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوما في إفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والإنسان .

* * *

هذه هي العلامات التشرحية التي انتهى إليها أصحاب شجرة النسب من النشويين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التي يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شامان بنشر » Pincher في كتابه عن تحليل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « إنه لا احتمال لتسلسل الإنسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحا أن يتطور منه تركيب الإنسان ، إذ كان الإنسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد - فوق هذا وذاك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال » .

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشرى وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوي فيقول أنه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحي في تعبير الدين .

النَّطُورُ قَبْلَ مَذْهَبِ النَّطُورِ

إن اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمنة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتواتر فيها الأخبار والأساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الإنسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالإنسان . ومرد هذه الأخبار والأساطير - على الأكثر - إلى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وإمكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل في النوع الإنساني فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من الأنواع الأخرى من الأحياء .

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها .. ولكن لعل غير تلك العلة ، مردها - على الأرجح - إلى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء .. ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله في التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء في مباحث الكيمياء ، ثم جاءت في مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية .

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابي في شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » إن « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أحسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه ، فأحسها المادة الأولى المشتركة ، والأفضل منها الاسطقسات المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »
ويذهب الفارابي على هذا الترتيب في التفرقة بين الإنسان والإنسان ، بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى .

ويقول الكتبي^(١) وهو يتكلم عن طبائع القرد : « إن هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركب من إنسان وبهيمة ، وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان »

ويقول القزويني صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام إلى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها إلى العضوى وغير العضوى ، إن « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية .. » .

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد إلى المشابهة بالنفس شبيه باحتراس النشويين المحدثين عند التفرقة بين الإنسان من جانبه الحيوانى والإنسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ..

ويقول إخوان الصفاء في رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلي التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فإذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها .. وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلي الحيوانية ، وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وإن كان جسما نباتيا .. وفى النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وإن كان جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات ، ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى الأشجار والزرور والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود

(١) محمد بن شاكر بن عبد الرحمن الكتبي الداراني ولد فى داريا من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ وأشهر كتبه المطبوعة « قوات الوفيات »

الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات .. وإن أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تثبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنسبط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الدبدبان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها مالا يحتاج إليه لكان وبالا عليه فى حفظها وبقائها . فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها ، فإن الجهاد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة . فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجهاد ، وتلك الزيادة هى الاغتذاء والنمو والامتداد فى الأقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التى تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجهاد ، وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجهاد ، وهذه الحالة الزائدة فى النبات التى شرف بها على الجهاد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجهاد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شئ بعد شئ .. فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه فى

حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فذلك هو في أفق الجادات .
 وقريب الحال منها .. ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات ، فيفضل بعضه على بعض
 بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الأثمار وحفظ النوع بالبذر الذي يخلف به مثله ،
 فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله .. ثم تقوى هذه الفضيلة فيه
 حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول ، ولا يزال يشرف
 ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه ويصير في أفق الحيوان ، وهي كرام
 الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه .. إلا أنها
 - بعد - مختلطة القوى ، أعني أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة ، فهي تحمل
 وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن في هذا
 الأفق إلى أن تصير في أفق الحيوان فلا تحتل زيادة . وذلك أنها إن قبلت زيادة
 يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات .. فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها
 ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر .
 كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ولم يبق
 بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهي الاطلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء .
 وقد روى في الخبر ما هو كالإشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه
 وسلم : « أكرموا عما تكلم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »
 ويستطرد ابن مسكويه إلى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة
 الحيوان في تنازع البقاء ، فيقول إن الحيوان : « إن كان ضعيفا لم يعط سلاحا
 البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه .
 وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذي أعطى القرون التي تجرى له مجرى الرماح ،
 والذي أعطى الأنساب والمخالب التي تجرى له مجرى السكاكين والخنجر ، والذي
 أعطى آلة الرمي التي تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذي أعطى الحوافر التي
 تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين . فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله
 ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى
 آلة الهرب والحيل بمجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهاها .. فأما
 الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها .. »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الانسان ، وهو « الذى يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفي في التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار في أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها ..

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أُم لا تتميز عن القروء إلا بمرتبة يسيرة ، وأُم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه .. فإذا صار إلى أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان .. وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هي التي قيل في حدها أنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهى إليها بعينها . ودائرة الوجود هي المتحدة التي جعلت الكثرة وحدة . وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجدتها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

إلى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التي مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطبائعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الإلهي ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلاحظ المرتبة التي ترقيت منها أولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها في وجودها ، وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يصل إلى ما قبله وإذا صار إنسانا كاملا وبلغ غاية أفضسه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما

حكياً تاماً تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية في التصويرات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين .. » .

وفحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي ينتهى إلى غاية وسع الطبيعة من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى الملأ الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة، وهى ما سماه بالمركز فيقول : « إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى - أثر حركة النفس في النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاعتناء ، وللنبات في قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنها مقسمة إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه في تهذيب الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهى « مراتب القرد وأشباهاها من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقته الانسانية ، وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا »

* * *

وأشار ابن خلدون إلى هذا التدرج - أو التطور - فترقى به من المعدن إلى القرد إلى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الإقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « إن عالم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بدور له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرجه التكويني إلى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك،

ولم ينته إليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ،
وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع إلى الدعوات أو اللعنات ، فيقول إن « بعض النسايين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات ، توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة ، وليس فيه ذكر السواد .. وإنما دعا عليه أن يكون ولده عبدا لولد إخوته لا غير . وفي القول بنسبة السواد إلى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول في موضع آخر : « استولى الحر على أبدانهم وفي أصل تكوينهم ، فكان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق إلى الوهم من القول بتدرج الكائنات، إذ يخيل إلى الجاهلين بمعناه أنه يعنى الكائنات في درجة درجة من مراتبه المتترقية ، وإنما حقيقته كما قال الخازنى : « إنما إذا قلنا إن الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك أنه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار في النهاية إنسانا »

فليس عندهم من الضروري أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التي هي دونه ، وإن كان جميع المتكلمين في أطوار الكائنات الحية لا يمتنعون إمكان التسايف بين الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء في كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على الخصوص إسهابا سَلِمَ فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين به في هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزويني صاحب عجائب المخلوقات . فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق الأسطورية التي انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب المخلوقات التي تتوافر الأحاديث عن وجودها في الأطراف النائية التي لم يصل إليها

أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمغربين ، وهذه الأساطير - كما قلنا في غير هذا الكتاب^(١) - تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هي البقية الباقية لنا من تلك الأوهام التي تسلط على العقل البشرى في أزمانه الخالية ، وهي المفتاح الذي ليس لدينا مفتاح سواه لخزانة الخيلة ، وما أكنته من تصورات الانسان ووجدانه وما انطبع فيها من البدائى العميقة المتغلغلة » التي عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهذا الكتاب الذى نحن بصددته مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يشاكل منها فى البر والبحر ... فنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا إنها تلد من خيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ويشبه الإنسان إلا أن له ذنبا . وقد جاء شخص يواحد منه - على قول القزوينى - إلى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى الحاضرة لإنسان ، وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل ، فإذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فقيل للولد : ماذا يقول أبوك . قال : أذئاب الحيوان كلها على أسافلها فما بال هؤلاء أذئابهم على وجوههم . ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الرياح إلى جزيرة ... « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس » وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل الخيلة فى فهم الصورة البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجان للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الإنسان وغرائزه الوراثة ، ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « مسودات » للادراك الإنسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتقيق .

(١) كتاب الفصول للمؤلف .

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء في الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الديني أو العلمي من أشباه هذه الحملات التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلي :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في دايتون (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامي الدفاع وخبير الاتهام :

— هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل بتفسيره الحرفي .
— أنا أقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل كما ورد فيها . وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقوله : « إنكم ملح الأرض » . فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحاً أو أنه كان له دم من الملح ، ولكنني أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار . .

— هل لك أن تخبرني يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟
— كلا يامسیدی . . لست أدري .
— ولا على وجه التقريب ؟ . .
— لست أحاول . . ولعلی أقرب من تقدير العلماء ، ولكنني أحب أن أدقق كثيراً قبل الجواب .

— إنك لا تعبأ كثيراً بالعلماء . . أتعبأ بهم حقاً ؟
— نعم يامسیدی . .
— أعتقد أن الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام .
— ستة أيام نعم . . ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة .

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان إلى التشهير بالعقائد الشائعة والمذاهب العلمية التي كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التي رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء .

إلا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر في إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها العلماء ولا يزالون يستندون إليها إلى هذه الأيام .

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على إعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث . ب . بيشوب وسماه « النشوء منتقدا »^(١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التي تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل إبراهيم إلى كنعان ، وأخرج منها الفترات التي لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشويين بالدليل . . لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن إنسان يخالف في تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى في صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون . . حيث يقول في كتابه عن عالم الحياة « إنه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا إلى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس في السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع في عالم الحيوان أو عالم النبات ، وإن تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشويين دليلا على التشابه

القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وماعدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضح تلك الصور العالم الألماني ارنست هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول .

ولم يدع ييشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند إلى أقوال العلماء المختصين . . فقال إن حصان الحفريات على أقدم صورة لها يثبت من نسبته إلى نوع الخيل غير الأسنان ، وإن الطائر الذى قيل إنه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط في تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة إلى الخالق فالعالم النشوى الأمين على علمه لا يتخذ سببا من أسباب الاحداد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال في كتابه عن عالم الحياة ، إذ يقرر جازما باعتقاده « إن ما تتطلبه - إطلاقا - ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة التى نراها حولنا وإنه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى إرشادها وتديرها وحسب . بل ، إنه هو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المادية . . »

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان أنها ترتبط بالحن « الروحية » التى تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها فى القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد فى هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التى تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث فى مذهب النشوء بما دعت إليه من بحوث متشعبة فى تنازع البقاء وإرادة القوة ، وفى تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفى هذه السنة - سنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التى تعرض لهذه

المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما اطلعنا عليه كتاب « الله والانسان والكون »^(١) الذى توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرضون وجهات النظر « الكاثوليكية » فى تحقيق كل فلسفة تبحث فى الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعى وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث فى مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التى تتوالى فى كل زمان بأسلوب وعنوان .

وقد استفاد مألفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التى انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين فى الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا فى التفصيلات التشريحية التى كانت جملة فى الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الانسان ، ولا سيما الفارق المميز للانسان الناطق .. وهو قوام الفصل بين النوع الآدمى وعامة الأنواع العليا .. فهذا الفارق الواسع فى الملكات العقلية يقابله فارق دقيق فى تكوين الدماغ ، يبين استحالة النطق بغير هذا التركيب الإنسانى الخاص بدماغ الانسان دون سواه : فالرأس الإنسانى يحتوى جميع المناطق التى وضعناها فى رعوس القردة ، ولكنها تخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية .. أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك .. فهناك مركز للنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطق بغير

تعطيل عمل اللسان والشفيتين .. كذلك. تستتبع آفات البصر عجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزا عن فهم الكلمة الملفوظة وإن تيسر سماعها . ويضاف إلى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكلولوجية .. ولا يوجد غير الشمبانزى بين القرود المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف .

وعلى هذه الوتيرة المطردة يؤدي هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعي » لا يبرز مواضع الشبهة في أدلة مذهب النشوء وقرائنه التي ترتفع إلى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل في حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقا خفيا منها وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التي يستند إليها النشويون للقول بتحول النوع الانساني من الأنواع الدنيا . . بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات ، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات . .

وقبل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعائه دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان . . فالمعتضون عليه - طلبا للأدلة الطبيعية - لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعتضين اللاهوتيين . وقد أيدته أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته واعترافا بكفاية براهينه. فن هؤلاء العلماء - بل من أشدهم حماسة له - توماس هكسلي صديق دارون وصهره ومدره^(١) المذهب كله في حياته ، فإنه لم يزعم قط أن أدلة الانتخاب الطبيعي المؤيد لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ،

(١) مدره القوم والمذهب هو المدافع عنه الذي يدركه عنه كل هجوم وعدوان .

وإنما كان يقول إن الانتخاب الطبيعي يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى
بغير تفسير لو لم نتقبل مبادئ الانتخاب الطبيعي كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء
لامارك. ويرى العالم البيولوجي الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب
الطبيعي ، إنما هي نظرية منطقية وليست بالنظرية التي تعتمد على شواهد التجربة
والأدلة الحسية . قال في رده على هربرت سبنسر : «إننا لن نستطيع أن نثبت
بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعي » وأن قول هربرت سبنسر « إنه إما أن تحدث
ورثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق » إنما هو دليل منطقي وليس
بالدليل التجريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم في قضايا المنطق ، لأن تحليل
التطور بغير وراثه الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل .

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعي إلى اليوم ، فلم
يتقدم أحد من النشويين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨)
بدفع حاسم لشكوك المترددين في قبول تحول الأنواع . وقد كتب دوبرانسكي
Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون في
مجموعة : « قرن من دارون »^(١) فلم يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا
جديدة لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى النسلات والصبغيات في أرحام أفراد
الحيوان المتميزة ، وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى الأفراد
من نوع واحد أخذ في التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور
والإناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت نسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام
إلى تمام تكوين الجنين .

* * *

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن
من سلسلة الأنواع إلى سلسلة النسلات Genes والصبغيات .. وأن الأمل في
الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ النسلات phylogeny أقرب في رأي

البيولوجيين من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد رينش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن «التطور فوق مستوى الأنواع»^(١) ليشرح هذه الفكرة ويبين أن عزل النوع إنما يتم بانعزال ناسلاته وأن البحث في تاريخ تغير النسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول إلى الحلقة التي تفصل بين ماتقدمها وما تلاها ، وتنشئ شروطاً جديدة للنسل والوراثة فتعتبر بذلك حداً فاصلاً بين نوعين .. فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموعلة في القدم ، ولكننا إذا اكتشفنا سر تطور النسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فهذا هنا محل الحلقة المفقودة في سلسلة الأنواع .

مَذْهَبُ التَّنْطُورِ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ

من خصائص مذهب داروين - على ما يظهر - أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العامة .. فإنه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوربية ، وتتابع أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابع قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرار هذا كله في الشرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقش شبهاته عن حقائقه إلا بعد الثورة المفاجئة التي يظهر - كما أسلفنا - أنها مقدمة لأبد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه .

وقد تصدى للرد عليه في الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم .

وقلما يتصور القارئ العصرى أن مذهباً كمذهب التطور يشيع في الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها في زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية .. لأن القارئ العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل إلى الأمم الشرقية وهى في « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن في شرقنا العربى حجاباً دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربي المثقف في حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور لينعزل في حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب الإنسان حيثما كان ، في زمن لم يتحدث فيه الناس عن شيء كما تحدثوا عن مفاخر الأمم بالأصول الإنسانية وبالأنسب التى يدعيها السادة لأنفسهم وينكرونها على الرعايا المستعبدين .

وسنختار في هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه في ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين، ومنهم أهل السنة والشيعة، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ، وقد وصلت أصدااء الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في الهند والصين .

قال السيد جمال الدين الأفغاني من أئمة المصلحين من أهل السنة في كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائلين بهذا القول داروين وقد ألف كتابا في بيان أن الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهديب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي » وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك .. فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، إلا ظنا ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقي بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامة ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .. أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه ..

« وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال ومحركسبين تشاركها في المأكل والمشرب وتسابقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا في الألوان والأشكال والأعمال - فما السبب في هذا التباين والتفاوت ، فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر ..

«وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البني والصور والقوى والخواص ، وهي تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق من الحشرات المتباينة

في الخلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فإذا تكون حجته في علة اختلافها .. بل إذا قيل له أى هاد هدى تلك الجرائم في نقصها وخداجها .. وأى مرشد أرشدنا إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة في عضو أداء وظيفته وإيفاد عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجرائم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. فلاريب أنه يقبع قبوع القنفذ ويتكسب بين أمواج الخيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين ..

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية ألّهيّة يشغل بها نفسه عن آلام الخيرة وحسرات العماية .

« ولما نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك أن الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة في البلاد العربية ، وإنما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقتله في بقعة واحدة لوقتتين مختلفتين حسب كثرة الأمطار وقتلها ووفور المياه ونزورها أوجد علة التحافة ودقة العود في سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل في الحرارة وقتله في البرودة ..

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم ، فلما واطبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذنان .. كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت إذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألّوفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونا إلا لإعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة .. فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة

وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة في نظام الكون علويه وسفليه ..
 والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من
 ثلاثة أشياء : متيير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وظنوا أن
 المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتنجلي بهذه الأشكال والهيئات ،
 وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلائمها من
 الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتتشىء لها من الأعضاء والآلات ما
 ينفي بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول
 السنوية . هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر
 وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب إلى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق
 على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين أن الأجسام مركبة من الأجزاء
 الديمقراطية - نسبة إلى ديمقراطيس - ولا ينطبق رأيهم الجديد في هذا النظام
 الكونى على رأيهم في تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن
 يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل
 بها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلها ،
 فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء ..

« وبعد ذلك فأنى سائلهم كيف اطلع كل جزء من اجزاء المادة مع انفصالها
 على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيا بما ينويه من مطلبه ؟ ..
 وأى برلمان أو أى سنات - مجلس شيوخ - عقدت للتشاور في إبداع هذه المكونات
 العالية التركيب البديعية التأليف ؟ .. وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم وهي في بيضة
 العصفور ضرورة ظهورها في هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار
 وحوصلة لحاجته في حياته إليهما ؟ ... »

* * *

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة
 دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقي الأصفهاني » وهو باحث فاضل
 من علماء الشيعة بكر بلاء المعلى ، تحرى النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب
 النشوء العربية والأفرنجية التي وصلت إلى الشرق الإسلامى بعد كتابة « الرد على

الدهريين» ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل في طلب غيرها من المراجع المستعدة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها إليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب حيث يقول إن دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتباً غير موجودة عندنا «وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الدينى وظننا أنه يوجب علينا المسارعة ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى دليل قد فزع هؤلاء من إثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانا ، وأنا أقترح عليهم أن يخبرونا بما يجدونه منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الإنصاف لا المكابرة» .

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التى تخالف الديانة الإسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض أدلة الاتحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على إيجابها ، وقد قال فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين .. ولهذا ترى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا إلا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة إلا ليسرى ازراؤه إلى الشرائع قاطبة .. » وأنصف المؤلف مذهب النشوء، فلم يحسبه من مذاهب الاتحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى إنكار الخالق وإنما يتسرب إليه الاتحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء إنها « ليست مما يناهى الدين ، إذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع إله واحد قادر حكيم قد وسع كل شئ علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وأنها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جبالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ،

والجد الأعلى للفيلا أو « سنونوا » يطير في الهواء ، فان أدلة الصنع عليها في الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرصة الملاحظة بهذه الآراء وجعلها أساسا للحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف إن هذه الآراء « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء في وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ، والشجر من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا إلا بعد ما يجعله حامضا ولا يجعله حامضا إلا بعد ما يجعله مرا » .

ويستطرد المؤلف إلى تلخيص آراء النشويين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع إلى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا إلى القردة كما انتسبوا إلى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب دارون في تعويله على وجوه الشبه وإعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذي أملاه الامام جعفر الصادق على المفضل بن عمر الجعفي ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم من سائسه ما يوميئ إليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ، حتى أنه يقرب من خلق الانسان وشماله .. أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنحها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وإنه لولا فضيلة فضل بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم .. على أن في جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

وينتقل المؤلف إلى كلام الدميري ، إذ يقول عن القرد إنه « أشبه الانسان في غالب حالاته ، فانه يضحك ويطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشئ بيده وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشى على رجله

حينما يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب " ، وليس ذلك لشئ من الحيوان سواه فهو كالإنسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث ، وهما خصيلتان من مفاخر الإنسان ، فاذا زاد به الشبق استمنى بفيه ، وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى .. »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكي النفس الإنسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول ان الإنسان - كما يشابه القرد في أشياء - يشابه غيره من الحيوان في غيرها « بل لعل في الحيوانات الدنيا من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة .. وهذا الأستاذ الشهير « كوفييه » يقول ان ادراك القرد ليس أرق من ادراك الكلب الأقبلا .. واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الإنسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الإنسان تحول قردا .. وهذا ما نص عليه الذكر الحكيم . »

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الإنسان والقرد ، مضى يناقش القرائن الأخرى التي يستند إليها النشويون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع الإنساني من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات العليا ، فنهج في مناقشته على هذا المنهج الذي يستمد الدليل من أصول الجدل المنطقي تارة ومن تجارب للواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعته المتفرقة لمراجع المذهب .. فلم يخطئ مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده الغالب على منهج النقائص الجدلية . ومن قبيل ذلك انه عمد إلى دليل من أقوى أدلة النشويين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالشندوة - في ذكور الإنسان ، فتساءل : « لا أدري لماذا بقي أثر عار الخنثة ظاهرا في الإنسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه في سلم الارتقاء كذوات الحافر » ولم ينس أن يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده إلى ما قال الشيخ الرئيس في الشفاء « ان الفيل الذكر له ثدى كما للإنسان ، وذكر ذوات الحافر لا ثدى لها إلا ما يشبه أمهاتها وينزع إليها كما يعرض مراء في الحليل .. »

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل في باب

« الشذوذات » التي تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهى أجنة فى بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه فى غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانقلت إلى هؤلاء التعساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ .. فإن لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل » .

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى - وهو سبب هام من أسباب التطور - كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لا يتوقف تلقيحها على الحشرات والطيور ؟ .. وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو أجمل ؟ .. ثم يقول : « ان العجاوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب » .

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملحقة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام .. ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بم يعلل هذا الحسن والانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوها مما لا يوجد إلا بعد التلقيح » .

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قلتها ، وليس هذا الافتراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قلتها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال إن أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه إلى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه

الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها في الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله في الحيوانات المنحطة التي يذكرها بخنوخ وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهي بعيدة في الأصل منها .. » .

قال : « وهذا الاحتمال .. وان لم أجد أحداً قال به في أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين في أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيرون : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهي كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها إلى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها . والمذهب الثاني أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ .. وعند الكاتب أن المذهب الثاني أقرب إلى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول .. » .

وتابع المؤلف بحثه في النشوء ، فاستطرد منه إلى البحث في الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل في حصول التغير ؟ » ..

وانتهى المؤلف إلى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيع والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو العالم الألماني : « انه في بعض طوائف الناس صفات يشاركونهم القرد فيها ، كما في بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقروء حتى يحتمل ارتقاؤها من القروء ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين يرتاب في ذلك ، والفرق بين الإنسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع

المقطوعة منه .. فالأدلة على النشوء الفعلي قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية ...» .

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشئية » في الشرق العربي ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هي الكنائس التي تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه في موطن ظهوره ، وشاركهم في ذلك علماء الطبيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستندوا في انكاره إلى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشويين بمزيد من الأدلة القاطعة لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفي في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية إلى الترجيح والتغليب أو إلى الظن والتقدير ، وقد يعزى إلى هذا السبب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة في البلاد التي كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشئية التي كتبت باللغة العربية ، ولم نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس فرج صغير الماروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطيه سوريال ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلي شميل » في موضوعه ، وهي مؤيدة للنشويين المنكرين للأديان .

فالأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - ألف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نقى النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على بطل داروين » وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور « شبلي شميل » لرسائلته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القاطع وتعويله

على الشواهد التي توحى بالرأى ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعارض
المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال .

وقد آثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة
المخالفين لدارون في القول بتحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء
لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين
سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل
الله .. ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا
يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا .. ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين
لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان
سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك .. ومنهم « ميفرت » قال
بعد أن نظر في حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وانه رأى
من آراء الصبيان .. ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو
تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد أن الفروق بين البشر والقردة أصلى وبعيد جدا ..
ومنهم العلامة أغاسيز ، قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم
الفكتورية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمى باطل في الواقع ، وأسلوبه
ليس من أساليب العلم بشئ ولا طائل تحته .. ومنهم العلامة هكسلى وهو من
اللاأدرية وصديق لداروين ، قال أنه بموجب ما لنا من البيانات لم يتبرهن قط أن
نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو بالانتخاب الصناعى ، ومنهم
العلامة تندل وهو كهكسلى قال انه لا ريب في أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون
أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها .. ومن المحقق عندى أنه لا بد
من تغيير مذهب داروين » ..

ويقسم الأستاذ حوراني أنصار مذهب النشوء إلى ثلاث فرق : معطلة ولاأدرية
والهية .. « أما المعطلة فهي التي نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما
اللاأدرية فهي التي لم تتعرض لنفى الخالق ولا لإثباته ، وأما الهية فهي التي اعترفت
بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة إلى اثنتين ،

ظنت لإحدهما الإنسان ابن القرد أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الإنسان من البدء إنسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الإلهي الذي قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا .

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التي وجدت في باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة في المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين في المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شئ من بقايا الحفريات .

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الإنسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوزة إلا لوزة » .

ويحيل النشويين إلى بحث التيرانولوجيا - أى المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أى من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والأخلاق .

وقال عن الانتخاب الطبيعي إنه لا يمكن « أن يكون أس الارتقاء الدارويني لأن الطبيعة إنما تؤثر في الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون .. ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر » ويقتضى مذهب داروين أن لا تجمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت في المنقرضات والأحياء »

وأضعف ما في ردود الأستاذ حوراني قوله عن قدم الانسان ، إذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشويين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في ثانی العصر الجليدى وهو المعروف بالأكثر أحدثية ،

وفصل ذلك فى خطبة له فى الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن :
نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين فى زمن نشوء الانسان فاتفقت على أنه نشأ
منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ..» .

* * *

وفى إبان احتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس
فرج صغير المارونى مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قرية شهبان (١٨٩٠) كتاباً
نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سى أحدهما بالإنسان القردى وسمى الآخر
بالإنسان الآدمى ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض
التفصيلات :

الآدمى - أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل إنسان .. أفهل
عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شئ من ذلك ... فالإنسان القردى
لا يكون له وجود ..

القردى - إن المباحث البالونولوجية « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما
يعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات .. على أن أسألتنا
قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما
يتحول إلى حيوان قوامه على شكل قوائم الخنزير ، وإن منها ما قد يتحول إلى الماعز
ومنها إلى الخرفان .. الخ

الآدمى - فان كان ذلك من طوابع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين
العلم الحقيقى الذى تعولون عليه ..؟

القردى - نعم .. إننا لم نجد إلى الآن أثراً إلى الانسان القردى ، غير أن
العلم لم يمه قضاؤه

الآدمى - ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع .. فأننا نرى
الأنواع لا تتغير عن ذاتها وإن كثرت فيها الأنسال ، فاذا قلت لا فارق بين النوع
والنسل أسكتتك العلامت الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردى - ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقدون على شئ منه ؟..

الآدمى - أو يكون الجهل فى أصل شئ أو فى علته حجة فى إنكار وجوده ، أفنقه ما للعلامم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق .. ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها .. إنا نعلم أن المولود من قران الفرس والحمار لا يكون إلا عاقرا ، فنقول : لابد من فرق نوعى فى مولده ، .. أفجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من إنكار وجوده القردي ... إلا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بإمكانية مذهب التحول ..

الآدمى - لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : إن الله سبحانه قد جبل آدم من تراب قد عركه كثير من المولدين من الخازباز إلى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال .. ومن العجيب كيف لا يفقهون أن هذا المذهب إنما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

القردى - أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

الآدمى - إذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس بنفس .. أما هذا التعويض فيتم إما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم إقامته أو ملاشاته ثم إقامة آخر بدله

القردى - قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول أن التمايز إنما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى ، فما قولك فيه ؟ ..

الآدمى - قد سبقهم إلى مثل هذا القول غيرهم من الملحددين الذين يؤيدون المادة .. ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل الصدفة فى تمايز الكائنات .

إن الصدفة لا تقع إلا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف ما هي ..
 فقد يمكن للطاولة التي يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التي
 هي من الضرورة ، ودائماً ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من
 الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر البسيطة وذوات
 الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التي تصدر عن فاعل لا يصادمه في فعله شيء
 كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادمها في فعلها ، وعليه فإن هذه الأشياء لا
 تقع عليها الصدفة .. أتظن إن للصدفة أن تجعل الكلب حماراً والحمار كلباً ..
 .. ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال إنما تلي تمايز الأشياء ولا تسبقها .. أو لا
 ترى أن السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل من آلاتها في موضعه على هيئة
 من التمايز لا ينبغي أن يشوبه أدنى خلل »

* * *

ويفضي هذا الحوار إلى عجز « الإنسان القردى » عن الجواب فيتبعه صاحب
 الكتاب بمناقشة مطولة للمذاهب الماديين يستند فيها إلى حجج الفلسفة اللاهوتية ،
 ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفي لتحقيق النظر في أصل الوجود من
 حيث هو موجود ، ولهذا سمي البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغي
 أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمراد به علم يبحث عن الوجود
 من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معانيها وأحوالها
 الخاصة التي ينحاز بها الشيء عما سواه ، أو علم يبحث به عن الأسباب الأخيرة
 للوجود والمعرفة ، فإن كليهما لا ينفصلان ، لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة
 إنما هي التي تمكننا من الوقوف على أسباب الوجود .. ولذلك فإنه يكون علم العلوم »

* * *

ولا نعلم أن كتاباً في هذا الموضوع بقلم باحث مسيحي من كتاب اللغة العربية
 ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين في حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير
 الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذي ألفه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين
 سنة (١٩٢٩) أعيد في خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلى شميل في هذا المذهب ،

ونشط البحث بين الأوربيين في نظريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضاربة في نظريات تنازع البقاء وإرادة القوة وما إليها من « الفلسفات » التي أثارها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف إلى الأطوار التي مرت بمذهب دارون منذ إعلانه إلى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألماني إدوارد فون هارتمان قال فيه إنه « في سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفي سنة السبعين أخذت هذه النظرية تنتشر في كل صقع تقريبا ، وفي سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الدارويني عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس ، وفي سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتل وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهام تبين واتضحت ، وفي العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة ، وكان بين مضاده وداحضى حججه من أعلام العلماء إمبر ، وغوستاف وولف ، ردى فريز Vrise وفون والشتين Wallstein وفليشمان Fleischmann ورينك Rienk وغيرهم كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمى عندما يأتى بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحي وغير المسيحي عليها على غير تضاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما أنهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الدارويني المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر إلى ما يناقض حقائق الوحي المقدس ، غير أنهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطفاء هينين .. فمن هؤلاء العلماء الاهوناء المتشدين الأب واسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات الميال إلى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصيلة أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب الأليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ .. فلذلك بهذا ترى أن مبدأ الخلق والإبداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق الأنواع الجديد بالتحدر والتسلسل محل التصور القديم لثبات الأنواع على عدم التغير كانت حكمة

البارى فى الجديد أجد منها بالقديم ، من وجه أنه عز نواله وجل جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور جديدة لموجودات حية بدون افتقار إلى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة للكون ونواحيه والمعنوية بحفظها وإدارتها . وحينما تتصادم نظرية ما مع التعليم المسيحى تصادما واضحا غير قابل للشك .. يجب وقتئذ رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا . كل من قال بمبدأ نشوئى بنى به الحلقة قطعا بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل نظرية تنكر حلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قول معقول لهذا هو مقبول .. لأنه ليس فى الكتاب الكريم ما ينافيه أو ينقضه . أما بالنظر إلى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الجسد .. فقد ارتأى بعضهم أن المقصود بقوله جبله من تراب الأرض أنه قضى ورسم الصورة وهيا الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والإبريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكي والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبدا تفترق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان .

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، وهى تلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى المتحجرات .. »

ثم سأل الأسقف : « إذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ » فكان جوابه : « إننا نجيب مع العلماء التزيهين المجردين من الأغراض والأهواء بالنفى ، وإنه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد يبحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « إن النشوء بجميع مذاهبه لا يبنى مقاصد وغايات البارى عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوئى الكبير والمادى المعروف بين الناس النبهاء سلّم بكون النشوء لا يلزم منه نفي مقاصد الله ، وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملها مع لا تمام مقصد جيد أو اكمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان والحيوان لهُو

دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله .. فالذى يصنع آلة تعمل هى آلة مثلها ، هو أحذق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تتعداه ..

* * *

وفى سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حلیم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسبوط كتاب « تصدع مذهب دارون والاثبات العلمى لعقيدة الخلق » نبه فيه إلى خطأ يسبق إلى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فإن من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترافاج مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « إننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية .. إننا نعلم فقط أنها غير قابلة للتحويل وإننا على يقين بأن دارون ولا مارك لم يكتشفا الناموس الحقيقى لطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الأنواع « أن جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية إلى نوع آخر وكل التغيرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها بائولوجية -مرضية - تقود إلى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الايطالى روزا أن الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الإنسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون .. » .

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب « فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليّة ، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها فى العصور الجيولوجية .. » .

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلمية : « إن هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهى معرفة كيف استطاع المخلوق الذى يعتبره التحويليون الحلقة المفقودة بين القرود والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التى تحيط به ... فإن أصحاب نظرية النشوء يقولون ان هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الانسان الحالى .. فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والذئب والتمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ .. » .

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع - كما شرحها الدكتور سوريال - هى مشكلة المشاكل فى تمحيص هذا المذهب إلى اليوم ، وأنها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب .

* * *

ونحن نكتفى بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجال الدين فى مناقشة مذهب النشوء ، وهى :

١ - منحنى الجزم بالرفض ببطالان المذهب فى جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة .

٢ - منحنى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والإيمان بأنه - إذا ثبت - لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، فى الخالق ..

٣ - منحنى القول بأن الأدلة العلمية التى يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة العلمية التى يوردونها على تأييده ..

* * *

أما أنصار مذهب النشوء فى الشرق العربى فقد كان أشهرهم وأفصحهم بيانا الدكتور شبلى شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه إلى الأخذ بالنظريات

النشئية على علاقتها ، وقد سبق الماديين الغربيين إلى نفي كل صفة روحية ، أو غيبية في الانسان ، إذ قال في مقدمة ترجمته لشرح بخنر على مذهب دارون « إن الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ النقش في الحجر .. فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس في تركيبه شئ من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فإن جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحیوان فزیولوجیا ، وكالجماد كیاویا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر .. فالإنسان يحس ، والحیوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحیوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما .. غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلى شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون ويخنر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ - إن التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع الواحد إلا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ - وإن أنصاف الأنواع من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب - الأركوبتركوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات » .

٣ - إن العلماء يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « أن النباتي الإنجليزي وستن يذكر ١٨٢ نباتا إنجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد

قال هوكر في هذا المعنى ما نصه : إن النباتين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود ..»

٤ - إن التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يجري بينها التحول في أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى - عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين - أن الدكتور شبلي شميل إنما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة إلى خصومة الأديان ، ورأى كما قال في مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها في الدنيا إنما هو لعاملين : حب الرئاسة في الرؤساء ، وارتياح المرءوس إلى حب البقاء ، وكلاهما لما في الإنسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجي العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين » .

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقي ، ولربما كان حظكم من ذلك في الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعللوا النفس بما في التاريخ من سقوط بعض الأمم .. ألقت إليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فإنه - وإن حصل ذلك - إلا أنكم لن تبلغوا أمانيتكم لتوفر معدات التقدم في العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة » .

* * *

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التي قوبل بها مذهب التطور في الغرب وفي بلاد الشرق العربي ، نحسب أننا أتينا فيها على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين في هذا المذهب ، وأن الكتب التي اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا في هذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التي ذكرناها في هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها .. فإذا أردنا أن نعود إليها لنحكم

عليها حكم الزمن الممحص للآراء ، فالذى نراه اليوم أن الدينين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم في معارضة النشويين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الإلهية في كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام

* * *

ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا -
دينيا وعلميا - في انكارهم باسم الدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفي ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن إثباتها بما يقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفىها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقلة المعلومات الصحيحة التي وصلت إليهم عن مذهب دارون ومذهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم إلى درء الخطر عن العقائد الإلهية يوم تعجل ثائرة التقليد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم في الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثرثرة بأحاديث الإلحاد والمروق .. فكان تعجلهم هذا داعيا إلى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينين .

بيد أنه - ولا ريب - تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث في نشر كشافه المتوالي ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهي في معرض التحقيق بين الإثبات والنفي أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين في الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، ولما يجابههم تعليم النشأ أن الشمس تدور حول الأرض .. كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل في فلك يسبحون ..

لقد كان في ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هذه الغلطة في التصدى للمذاهب العلمية التي لم ينقطع الشك في ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكرها أنهم كانوا مخطئين في فهم الدين والعلم

على السواء .. فان زلزال المادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين ..

* * *

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضايا الحقوق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين التشريع .. فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها - إذا لم تثبت - اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى العلمية ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين ..

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يصطنعوا الأناة ليدركوا ما فى هذه الحجة من الضعف والعنت ويعلموا ان التشبث بها إلى هذا الحد إحراج للخصم من قبيل إحراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين . فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى لها ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغى أن يترتب عليها من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الخيل والحمير أو بين الذئاب والكلاب ؟ .. وإذا كان القائل بالنشوء يعجز عن إقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هذا العجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ .. إن كثيرا من الأحياء الباقية إلى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات الأرض ، فإذا جاز هذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شك فى بقائها إلى اليوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟ فليس من رأى السليم - دينا ولا علما - أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشويين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث .

وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت في الخصومة الفكرية، وإنه لعنت معيب يجوز في خصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان في خصومات الأفكار والآراء ..

* * *

وفي كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم في شأن الإنسان يعيننا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشويين المؤمنين بالخالق ؟ ..

وليس يخالجن كثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد ثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو ثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم في أية وجهة من هذه الجهات ، كما سسنينه في موضعه من الفصل الأخير

الدِّينَ وَمَذْهَبَ دَارُونْ

نعود فنقرر في هذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصحح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي إلى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله .

فأولها - شارلز دارون - كان يقول إنه يستريح إلى الإيمان بوجود الإله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين .

كتب في سنة (١٨٩٧) إلى الأستاذ فرديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « إنني في أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معنى الملحد إنكار وجود الله . وأرى على العموم - وبخاصة مع تقدم السن - أنني أحرى أن أسمى (لا أدريا) وأن هذا الاسم أقرب إلى الصواب في وصف تفكيرى .. »

وقال في خطاب كتبه إلى طالب هولندي (في الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣) : « ... يبدو لي أن استحالة القول بأن هذا الكون العجيب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ، إنما كان وليد المصادفة - هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التي تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام .. »

وكتب إليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأل عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة

التي يدعو إليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلا :

« إن مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعها ، ويود أن يقول إن مذهب التطور يوافق كل الموافقة إيمان المؤمن بالله .. غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا في تعريفهم لما يعنونه بالإله » .
 ويفهم من خلاصة رأيه في سيرته التي كتبها بقلمه ، أنه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها إلى الوحي الإلهي ، وأنه لم يقم لديه الدليل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه إذا أراد أن ينظر إلى المسألة الإلهية من جانب الانتخاب الطبيعي فإن أنواع الأحياء كانت خليفة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهي الحجة التي يستند إليها الملحدون في انكارهم للمقاصد الإلهية .

وكان دارون على تردده في مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولا يرتضى من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا إليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدي إليه كتابه عن رأس المال كتب إليه متعلدا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وإنجلز في موسكو : « إنني أشكر لك رسالتك الودية ... وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدي إلى مع شكرى لهذه التحية ، إذ كان اهداؤه إلى يتضمن على وجه من الوجوه اقرارى لما في سائر الكتاب الذى لا علم لى به . وإننى - مع غيرتى على الدعوة إلى حرية الفكر في جميع المسائل - أرى ، صوابا أو خطأ ، أن المناقشات المباشرة التي تناقض المسيحية والإيمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وإن خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أراى أن تجنب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية » .

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفي وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وأن الإيمان بأية ديانة

من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول .
أما « الفريد رسل ولاس » شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الإيمان بوجود الإله .. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة أنها لا تجري على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقي ، وإنها كان يجوز أن تجري على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويمثله في حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وإنما هي الإرادة الإلهية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التي يريد الله أغرب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى الإرادة الإلهية على اطراد أو على استثناء .

* * *

ومن عقيدة صحاحي المذهب في مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين في الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود يراه في الدين المسيحي أو في الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهج الذي ينهجه في تفكيره وأساليبه استدلاله .
ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسي و « هويتهد » الانجليزي ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء في مجمع العلوم الملكي كالأستاذ « جلاستون » الذي يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة في النظام ووحدة في الغاية ، تبدو أن خلال النظر إلى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهي أو

فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التي اختارها العناية الإلهية لتدبير مقاصدها منذ القدم ، فترى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة » .

* * *

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم في الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين . وأشهر القائلين بهذا الرأي بين علماء الطبيعة «ارنست هيكل » الألماني و«توماس هكسلي » الإنجليزي ، وهو أقرب إلى الاعتدال في الإنكار من زميله .. فهيكلي يقول : « إن العقيدة الدينية تعني دائما تصديق معجزة خارقة ، وهي بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء في التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهي - على خلاف سنن العقل - تذهب إلى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية - أو غير طبيعية - وإن ذلك الوحي المدعى الذي تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التي وصل إليها العلم الحديث .. »

وهكسلي يقول : «إننا - أمام الأمور التي لا شك في بعدها عن الاحتمال - لا نقول إننا محققون في طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع المعجزة الخارقة بل نقول إن الواجب الأدبي يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا إذا كنا - بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المقنع - لا نرى أمامنا إلا حكايات نجعل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فلنأني أصرح بأن شعوري إنما هو شعور الدهشة من أن أرى الإنسان العاقل ينظر إلى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... » .

* * *

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان في قبول مذهب التطور ، ولكنها لا يتفقان في الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب في ذاته .. وإنما يرجع إلى طريقة النظر إليه وطريقة التفكير التي تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف، فرمما خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراهما الآخر مغنية عن البحث في إثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك في زمانه - لابلاس - عن مكان العناية الإلهية في حركات الأفلاك ، فكان جوابه، أنه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيراً يغني عن النظر إلى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذي يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وأنه لا بد - إذن - من البحث عن الإرادة التي اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة إلى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمناً بالعناية الإلهية فطريقته في التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الإيمان بالقدرة الإلهية والحكمة التي تستدعيها ، إذا كان هناك ما يستدعي صنع المعجزات في رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيدة الدينية ، فطريقته في التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لإثبات عقائد الدين .

لكن الرأي الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأي في شيء ، وأن هذه المعارضة ينبغي أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التي لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ،

ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضـة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث .

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق .. ولكنه لا يبتدىء معه من البداية ولا ينتهى إلى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدىء من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتجب عنه سر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقع له فى إرادة

وهذه السلسلة العظمى كاملة فى انتظامها لكل حلقة من حلقات الوجود ، وكل قابلية من قابليات الصفات والاعراض ، فلا تفرغ السلسلة العظمى من إحدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشيء قط ولا توجد فى الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ..

* * *

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الإلهى ، فهو الذى وضع هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية ، وهى أن الإله - وهو خير محض - يأبى له كرمه أن يضمن على شيء ، كائنا ما كان ، بنعمة الوجود .. فهما يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة إلى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق إلى الكمال .

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهند إلى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقله من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشتة على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعها من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ..

وقد كان فيثاغوراس يجتنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية إلى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكّل السباع ويحرم أكل القول وما إليه لأنه مأكّل البهائم ، وبحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط في درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهند في الدورات الأبدية التي يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين إلى شمسية وكونية .

* * *

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب .

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير ، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم الصغير Microcosm هو الإنسان ، لأنه يحتوى في تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع إلى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التي تمت للآله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط إلى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفي الإنسان شئ من خصائص الأجسام المادية ، وشئ من خصائص الأجسام النباتية ، وشئ من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشئ من خصائص الروح الذي يكون للملائكة بغير جسد ، وشئ من المعرفة التي يقترب بها من الصفات الإلهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان إلى العرب ، وانتقل من العرب إلى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية في آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩ م) وهو سلفستر الثاني ، وظهرت آثارها في أقوال القديس توما الاكوينى والبرت الكبير « ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الاسبانى أن نزعات دانتي الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محبي الدين بن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من

الغريين - جوهان اكهارت الألماني - نشأ في القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم^(١) .

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبسين من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربى ، إن الله هو الوجود الحق وإن كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول فى جملته يعيد إلى الدهن قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتاجوراس Protagoras الذى كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوجود ، وإن الله أنعم على الإنسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدى الذى اختص به الإله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض فى النهاية ، لأن أفلاطون يعود فيجعل العقل - صفة الله العليا - درجة يبلغها الإنسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التى تتمترج بالعقل فى تكوين الإنسان ..

* * *

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى إلى مذاهبهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلها مشتركين فى « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن فى تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان .

وتقبل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت إليهم من

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للمؤلف .

مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الإنسان بالإيمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التي يتحلى بها الإنسان ويعلو بها من أفق الخلائق الدنيا إلى أفق النعمة الإلهية وإن الإنسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهاق المادة بالعقل والمعرفة ، يطل ويذول متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل إلى الإيمان بالله والتعويل على البركة الإلهية في تطلعه إلى النجاة والخلاص .

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب إلا بعد ظهور فلسفة ايبيلار (١٠٧٩ - ١١٤٢ م) الذي فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شيء غير ما هو موجود ، لأن الخالق في علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه وإرادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو (١٠٩١ - ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال إنه يناقض ما ينبغى أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن إنعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان القديس توما الاكويني (١٢٢٦ - ١٢٧٤) يميل إلى تأييد برنارد في اعتراضه على تفسير إيبيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالي على ابن رشد في مثل هذه المناقشة ، فيقول : إن خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التي أودعها فيها لا ينفي قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولا ينفي قدرته على خلقها مرة أخرى في صورة غير هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل في الممكنات غير مستحيل . وجاء بيكونديلا ميرندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الإنسان لأرفع المراتب وأدناها ، وإن كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه إلى ما فوقه ، إلا الإنسان .. فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذى يرتضيه لنفسه ، علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا إلى مرتبة البهائم والحشرات .

وعاد البحث في مكان الإنسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة وعن مكان الإنسان على هذا المركز المختار .. فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضي نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تززع أساس الفكرة التي تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها في العالم المعروف ، وفي كل عالم يمكن أن يعرف قياساً عليه ، وظلت فكرة السلسلة العظمى غالبية على الباحثين في مركز الإنسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين إلى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزي اسكندربوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التي سماها مقالة عن الإنسان ، وقال فيها يخاطب الإنسان :

« اعرف إذن نفسك ، ولا تدع الإحاطة بعلم الله

« إن دراسة الإنسان المثلى هي الإنسان

« قائماً على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقاً عاقلاً في ظلمة ، عظيماً في خشونة

« أعلم من أن يكون « شكوكياً » لا يدري

« وأضعف من أن يكون « رواقياً »- يصبر

« معلقاً بين العمل والراحة

« معلقاً بين الإلهية والبهيمية

« معلقاً يتردد بين إثارة عقله أو بدنه

« يولد ولكن لموت ، ويعلم ولكن ليخطيء

« يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

« ويختلط أمره في فوضى من الفكر والشهوة

« وهو هو الذي يسئ إلى نفسه أو يتجنب الإساءة

« مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

« سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

« وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب في خطأ دائم
« ولا يزال فخر الخليفة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، في آن »

وهذا هو مكان الإنسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى
« التي إذا انكسرت إحداها وقع الخلل في سائرها »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول (١٧٠٠
-١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفي هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذي لا حد
له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

* * *

وتوقف البحث في سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن
عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن
البحث يعرض لمسألة الإنسان ومركزه من الكون في زمن من الأزمان ، وإنما انقطع
البحث فترة يسيرة ، ليتجدد بكل ما يستطيع من قوة مع البحث في مذهب التطور
وفي علوم الأحياء عامة وعلم الإنسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذي يشمل
اليوم علم الحياه أو « البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس
البشرية « الاثنولوجى » وعلم الإنسان « الانثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل
بالمعلومات العامة عن الإنسان ومركزه بين الكائنات في آراء علماء الطبيعة وآراء
الفلاسفة والمفكرين .

* *

ونعود إلى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوربيين،
فنقول انهم عرفوها - كما تقدم - من مصادر شتى ولم يجعلوها دستورا
عاما يحيط بالموجودات ويقرر للإنسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ،
لأن مكان الإنسان كما ورد في آيات القرآن الكريم أغناهم عن القول بمكان له ينسبه

إلى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على طريقة الأقدمين فى إلحاقه بغير الخلائق
الآدمية ..

ولأنما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير إلى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من
بحوث العلم أو الدين ..

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب التطور »
من هذا الكتاب .

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والفرقة بين مراتبها ، ابتداء من
النفس التى كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة فى الخلائق النامية ، إلى الروح التى تعلو
على النفس فى هذا الاعتبار ويمتاز بها الإنسان عما دونه ، إلى العقل وهو الصفة
الالهية التى يتحلّى بها الإنسان ويقترّب بها من أفق الخالق أو المحرك الذى تقترب منه
الموجودات بمقدار حركتها إليه ، وأشرفها حركة الإنسان إلى المعرفة وشوقه إلى الكمال

* * *

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء فى أبيات
تنسب إلى الإمام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها إليه ، ومنها عن الإنسان :
دواؤك فيك وما تشعر ودأؤك منك وما تفكر
وتزعم أنك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

ووافق القول بنجاة الإنسان بعقله ما ورد فى آيات القرآن الكريم من الأمر
بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الإسلام ثم فرق المتصوفة والمتنسكون
بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بضاحبه على سنن الهداية ، والآخر يلتوى به
دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتقدم فى فصل آخر :
« إن هذا الشوق ربما ساق الإنسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى إلى
غاية كماله وهى سعادته التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعرج به عن السمات
والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها .. ولا حاجة بك إلى علمها الآن
وأنت فى تهذيب خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت إلى ما ليس
بتمام للجسم الطبيعى لعل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق إلى أكل الطين

وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده - كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها إلى الأشياء التى تعوقها وتقصر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج إلى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى إلى طب طبيعى جسمانى ، ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين وإلى المؤدين والمسددين .. فإن وجود تلك الطباع الفائقة التى تنساق بذاتها من غير توقف إلى السعادة عسرة الوجود لا توجد إلا فى الأزمنة الطوال والمدد البعيدة . وهذا الأدب الحق الذى يؤدنا إلى غايتنا يجب أن نلاحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية ، حتى إذا لحظت الغاية تدرج منها إلى الأمور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب ... وينبغى أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فضيلة ما ، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها أخرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهى إلى غايات الأمور وإلى غاية غاياتها ، وأعني السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها إلى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة اللدنية ما يدركه الإنسان بالالهام والاستشراق ويهتدى إليه بريضة النفس وقمع الجسد ، وهى معرفة غير معرفة التعليم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبى الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « أن ما يرى على ضوء المصباح وصل إليه هذا الأعمى بعكازه » .

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الإنسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرس والبرهان .

* * *

وفى غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الإسلام الإمام الغزالى فى حكمة الموجودات وحكمة خلق الإنسان بين خلائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم ..

الإنسان في عالم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من الفقاريات Vertedrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات .
وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشرىات Anthropoids وتشمل الإنسان والقردة العليا ، وهى الغوريلا ، والاورانج ، والشبانزى ، والجيبون .
ويختص الإنسان من بين البشرىات باسم يميزه وهو اسم الإنس Hominidae كما تختص القردة على عمومها باسم النسانيس simidae فيفرتهما هذان الاسمان حيث يجمعهما اسم البشرىات .

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأنس يطلق على الكائن الذى وجدت بقية من جمجمته فى حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دىوبوا Dubois الذى وجد تلك البقية Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشرىات ، ولكن الرأى الغالب اليوم أن النوع الإنسانى بمزاياه التى بقيت له اليوم مخالف فى الخصائص الإنسانية لصاحب تلك الجمجمة ، وأن هناك اختلافا غير قليل بين أناسى الحفائر من قبيله وبين الإنسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Homo Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى بشر - و «سابيين» بمعنى ذى فهم أو ذى إدراك أو ذى كياسة .

* * *

وننقل هنا خصائص النوع الإنسانى فى علم الحيوان ، كما أثبتتها أقدم الكتب العلمية التى بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعينت بايراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشرىات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ونعنى به كتاب « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان » لمؤلفه الدكتور بشارة زلزل - وقد صدر الإذن

بطبعه من نظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة في الإسكندرية .

قال المؤلف في الصفحة (١٦٧) من المجد الأول : « فإذا نظر إلى الإنسان على سبيل المقابلة بتلك القروء التي هي لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة في العنق وفي الظهر وفي الصلب ، وليس للقردة شئ من ذلك . وعلة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدي إلى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها في الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقري ، وقالوا إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون في المتمدنين أوضح مما هي في المتوحشين . وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن في أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهي قوية جدا فيها وفي القردة بالعضلات المثينة التي تندغم في القذال والسناسن (التواءات الشوكية) وهي فيها أطول وأغلظ مما في الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقي فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك في الإنسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهي فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية إلا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام . ولذلك كانت هذه الأربطة في الإنسان ضعيفة . قال الأستاذ بروكا Proca وتابعه كثيرون ، أن السبب في انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشيا على قدميه إنما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتي الحركة والنظر متجهتا إلى الأفق . وطفل الإنسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقي إلا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه في الجلسة التي يعود عليها ، وذلك في الشهر الثالث من عمره . وفي السنة الثانية غالبا يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقري ، وذلك إذ يبتدئ الطفل أن يدرج .

« وبالجملة فإن الخاصة التي يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليها امتيازها على سائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم في المدنية إنما هي نمو

الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في الأوربيين يكون متوسطه في الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفي النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما .. وما نقص عن ذلك يدل على البلاء لعله أو آفة .

« والقروء الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراما ، وغاية ما بلغه في الأورانبج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ .. وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهي ، والفرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهي بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا إلى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية . فضلا عن ذلك فإن الجزء الوجهي للعظم الوجني قليل النمو في الإنسان بخلاف ما هو عليه في القروء ، إذا نظرت إلى الجمجمة من وراء لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الإنسان وتراه كله أو قسما منه في جمجمة القروء . وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية في القروء غير موجودة في الإنسان وهي لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التي يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التي يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق . ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمي في ابان نموه أن يهبط لها مئدغما ، فنشأ عرفا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القروء الصغيرة .. ومثل ذلك يقال عن التثؤات الشوكية البارزة في عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والتثؤات أصغر في الأوران مما هي في سائر القروء لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الخطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خصص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء ، أما الجييون فخطمه صغير وأعرافه قليلة التثؤ والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القروء إلى الإنسان ولكن

طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكأ عليهما في مشيه كما يتوكأ الإنسان على هراوته ..

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرد ابهام الرجل ، فهو في القرد أشبه باهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب القامة كما أنه يناسب في القرد حالة التسلق والإمساك .

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها .. فأسنان الإنسان بالنسبة إلى جسده أصغر مما هي في القرد ، وإذا تأملت في الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه . أما النواجذ والطواحن في هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة إلى طول القسم الوجهي من الجمجمة ... وما عدا ذلك فإن وضع الأسنان في نسخ الإنسان على نسق منتظم خلافا لما يرى في القرد حيث يتخلل نأى الفك العلوى وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ... والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية والعمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدي إلى تنوعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى في أقواس العمود الفقري ، فإنها في المتمدنين أكثر وضوحا مما هي في المتوحشين » .

وترجع علوم الإنسان إلى علم الحيوان لدراسة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع إليه أحيانا في دراسة تقدمهم الثقافي منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق *Homo Sapiens* وقبل وجود هذا الإنسان في العصور السحيقة التي استخدمت فيها الآلات على شئ من الخشونة البدائية . ويشيع - من أجل هذا - أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث .. قد كان لها أثرها البين في مذهب التطور وفي سائر العلوم الإنسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات .

* * *

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الإنسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسيني » Miocene قبل نحو مليوني سنة ، وأنهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الإنسان بعد ابتداء العصر الجليدي منذ نحو مليون سنة ، ولكن الإنسان الذي استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلي قبل مدة تتراوح في تقدير العلماء بين مائتي ألف ومائة ألف سنة . وكانت بداية انتشار الجماعات الإنسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجري الأول ، ثم تلاه العصر الحجري الحديث الذي تميّز فيه الإنسان بأكبر مزاياه ، وهي الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوباد على مراحل متتابعة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به في الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها في الزراعة وفي الانتقال من مكان إلى مكان حيث يوجد الكلاً والماء .

وفي هذه المراحل ملك الإنسان زمام الخليقة ، وبلغ المنزل التي استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج إليها ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية أن الإنسان تقدم شأوه الأول في صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأوه الثاني - والأهم - في صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته في شأوه الأول وملكاته في شأوه الثاني بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التي تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التي تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس في وسائلهم المشتركة .

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لا تختلف في الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالقوارق التي تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث ..

* * *

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ بالمسكن أو على

المهجرة منه إلى غيره ، ويعزى إلى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة ..
وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، أوضحها أسماء ألوان البشرة ،
وهى البيضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء
أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة إلى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تنول إلى تلك
السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملاحمها الجسدية .

وأبرز الفوارق بين السلالات - غير لون البشرة - شكل الشعر والأنف
والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السلالات التى انفصلت بين القارات
بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره .. فيرجحون أن سكان أمريكا
الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لما بينهم من التشابه فى استقامة
الشعر وخشونته ولونه الضارب إلى السواد . وقد أمكن اليوم تحليل أبرز الفوارق بين
سلالات البشر بأسباب المناخ والأقاليم ، فنسب الأنف الأفطس والجلد الأسود إلى
فعل الحرارة ، كما نسب الأنف الأفتى الطويل والجلد الأبيض إلى برد الإقليم
 واحتياج سكانه إلى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلفظ وقع
الأشعة على البشرة . ويمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج
وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس ،
ولا يصعب تحليل خاصة عنصرية واحدة بعلة - أو مجموعة من العلل -
ترجع إلى المناخ وأحوال المعيشة .

إلا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تحليلها بأسباب المناخ
وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى
إلى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون
علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد .
واللغات - فى تصنيف بعض علمائها - قد تنقسم على حسب الأجناس
والسلالات التى تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة
واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها إلى أصول متباعدة فى أجناسها
وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين
الكلمات وقواعد النحو فى مفرداتها وتركيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا

كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر في تركيبها وتعبيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق .. فلغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين : Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنعيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تداخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغات التى تتكون هذا التكوين أن تسمى بالمجمعة Polysynthetic مع وصفها بالغروية إلى جانب التجميع .

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجربى قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ..

* * *

ويشيع النحت فى اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبائل الأمريكية الأصيلة . أما الاشتقاق فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق واطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة ..

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرها . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الإنسان عفوا من الأصوات والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو

الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبل ، والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها . ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على التشابهات لفظا أو لفظا ومعنى .. وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف إلى الظواهر الصوتية والصرفية والعبارية في قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص في الصفات إجمالا وفي المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملزمة ، وهي جميعها من المزايا التي لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا إذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها .

ففي صدد الكلام على التطور الإنساني ، وعلى تطور الإنسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير إلى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الإنسانية الكبرى ، وهي خاصة النطق والتعبير . فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لاشك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجراف في وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وفي تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير في التعبير وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات .

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفه . ورأى بيرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية في العالم المعمور تنتمي إلى أصل

واحد وهو أصل الثقافة بوادى النيل ، ومنه انحدرت إلى القبائل القريبة ثم إلى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك في أصوله ، وأنه يشمل الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ووادى النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذى يأخذ بالمفهوم المنطقى ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حيثما وجد في بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار والخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأى من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ ..

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمس جميعا وبين قبة في الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال في حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة .

إن الأشواط الغابرة قد انقضت - كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للغلبة على سيادة العالم المعمور .

ولا تزال المرحلتان ماضيتين في عملهما السياسى والاجتماعى ، وفي عملهما الفكرى والأخلاقى ، فإن تسخير الدرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته إلى غايته حتى أواسط القرن العشرين . وإن الصواريخ الموجهة بين القارات إنما هى امتداد السلاح الحجرى قبل ألوف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد - من علماء الدراسات البشرية وغيرهم - هل من جديد ؟ ..

فإن يكن شك في الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم

غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل إلى الأعماق فى مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوباً كانت أو طوائف وطبقات ..

بقى الصراع بين الأمم ، وتغير منه أنه كان بالأمس صراعاً بين أمتين لتغليب إحداهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعاً بين شطرين من أمة العالم كله لتغليب نخلة اجتماعية أو « ايدولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذى يطالع الإنسانية بإحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جاثمة تثول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية إلى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهليتها المتروكة منذ دهور . وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر إلى الواقع المعلوم والغيب المجهول .

الإنسان في مِلْؤْمِ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعي التي عبر عنها أرسطو بقوله : « إن الإنسان مدنى بالطبع » وجعلته نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعي ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع .

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان بوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الإنسان ..

واسم « الإنسان » وحده باللغة العربية يغني عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساساً للألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما في الكلمة من الجناس اللفظي فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنساناً لأنك ناسي
وقال غيره :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديماً وحديثاً تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذي يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذي يألف الإنسان في مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش .

ويسرى هذا المعنى إلى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية في الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطئ المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التي لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الإنسان ولا الحيوان في عشرة طويلة .

إن الحضارة الأوربية - منذ عهد الفلسفة الاغريقية - لم تهتد إلى مذهب محيط « بالإنسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة .

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه .. إن صفة الإنسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الأنس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح .

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الإنسان الأخلاقى ، أو الإنسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات .

فالإنسان فى الحضارة الإنسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العملى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكامل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هذه القوانين بأداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت إلى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءت بها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الإنزواء والهرب من الحياة .

وباطن الإنسان يستقبل باطن الوجود، ويسمون فلسفته بالسانياسا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وإن كانت نهاية المذهب إلى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية ..

وحضارة الصين تميز الإنسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمى الذى يعنى أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق وإحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن

المعرفة في مذاهب الصين وهي « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين وإنما هي حالة كحالة الرشد الذي يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعاني والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا في الذهن بغير معاني أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف » .

وهذا « الإنسان في مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففي وسع العالم الديني أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو يناقض اعتقادها الديني بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفي وسع العالم المادي أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلمس لها مرجعا وراء المادة والطبيعة محالا إلى عالم الغيب أو ملموسا مدركا في عالم الشهادة ..

ففي وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الإنسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها .

وفي وسعه أن يعلل الأخلاق الإنسانية جميعا بغريزة حفظ النوع على سعتها ، أو بالغريزة الجنسية في نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين .

وفي وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستيحاء الطبيعة وتصوير الإنسان كل ما يحسُّه في خلده بصور الأحلام ومخلوقات الخيال .

ولنما يبرز خلاف الرأي بين الدينين والماديين حين يبحثون في الملكات الفكرية التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هي منوطة فيه بوظائف الحياة الجسدية التي لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و« الكيفية » ؟

مثال رأى الماديين يقول به ريدلى Ridley صاحب كتاب الإنسان فى حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه إلى آراء جماعة من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة أسطر فيقول : « إن الإنسان - وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حى سواه - لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الإغريق الأقدمون داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرسطو فى نطاق برنامجه الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعد فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف .. وبوفون الفرنسى معاصر لينوس ، وضع الإنسان فى المملكة الحيوانية واجترأ على أن يحتمل نسبته مع القرد إلى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف السلطة الدينية الفرنسية فخبروه بين النبذ وبين تعديل رأيه ، وهو تخير لم يتعرض له لينوس فى البلاد السويدية . وقد وضع الإنسان وضعه المحكم فى تعريف «الزولوجيين» فجعلوه بين أعلا الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلها بعد ذلك طبقة الأوائى التى تشمل القردة والنسانيس . وهم يقسمون الأوائى أقساما أعلهاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى إليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الإنسان الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف .

* * *

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين والتزولوجيين يرون أن الارتفاع بالإنسان إلى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائى Primates وبين هذه الأوائى وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة - مع هذا الفارق فى الدرجة - إلى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح .

وقد اشتهر في أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ، ولكنهم يقولون إن الفارق لا يفهم إلا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء إنما ينتهى إلى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقى إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون إعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان .

وأشهر القائلين بهذا رأى الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Teilhard de chardin البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا في كشف إنسان بكين وألقوا الدروس العلمية في المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقاهرة ، وكتابه « ظاهرة الإنسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت في أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق في اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقب عليها سائلا : « إذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة إلى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للإنسان أن يتمثل هذا الاقتراب في ابتداء ظاهرة الأهبة السيكلوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء . ومن ثم يلقي الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة إذا لاحظنا قلة الفارق التشرىحي بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشرىات على الرغم من سموه العقلى في بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغي أن ينتظر ؟ »

ويجملو هذا رأى بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول في كتابه عن مصير الإنسان : « إننا لانعرف الموسيقى إذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل في تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتتقص أو تزيد .. لاحظوا أن الفأرة التى يقل

المنجنيز في غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وإنه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه إلى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم إذا جاوزوا ذلك فقالوا إن عاطفة الأمومة هي مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم في هذا الرأي كخطأ القائل أن نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار .. » .

ويتبدل منحي الاستدلال المنطقي والعلمي ، إذن ، بهذا التفسير لمذهب النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته ومادونها وما فوقها في الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول إلى الجهاز الحيواني الصالح للنشوء بمطالب الروح والوجدان . وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو المسئول أن يقول للمعترضين عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعي على درجات تناسب الترقى في تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام في الأداة وفي النتيجة إن لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من أقنعتهم هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت مذهبه في اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها في اصطلاحهم المتفق عليه Religion Without Revelation فقال علم من أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى في تقديمه لكتاب ظاهرة الإنسان : «إننا معشر بنى آدم نحتوى في أنفسنا كل ما في الأرض من الإمكانيات الهائلة ، وفي مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازياد من العلم والمحبة » .

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة معنوية ، من كلمات الختام التى انتهى إليها السير جوليان هكسلى في كتابه « قناني جديدة لخمرة جديدة » اذ يقول :

« إن صورة الإنسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى - من وجهة المبدأ على الأقل - أن الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى إلى مخارج من العطف والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليقة أن تكبت وتترك نسيا منسيا .. فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم في تقدم الدين ، وقد قرر جدى في مقالة عن اللاأدرية كلاما في هذا الصدد كأنه غنى بذاته عن البرهان

فقال : « إن كل إنسان ينبغي أن يعطى سببا للإيمان الذى يؤمن به .. وإن عقيدتى لى الإيمان بالامكانات الإنسانية وأرجو أن أكون قد وفقت إلى شرح أسبابها » .

* * *

على أننا نجتزئ بأحدث الأقوال التى انتهى إليها غلاة الماديين بيانا لمزية العقل فى الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الإنسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء إلى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية .

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب إلى التركيز ، وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » ..

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحوس دقاته ، وأن الوعى الإنسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة ..

جاء فى كتاب مسالك العلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦ :

« من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد .. وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الأكسجين ولا تتنفس ، وإذا حقنت به عروق قطعة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة ... وقد حقنت به اثنتا عشرة قطعة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن ^(١) .. » .

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما

رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الإنسان نشأت
 اضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا .. فى الحيوان تتمثل وقائع العالم على
 الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل إلى المخ فتبعث التنبيه إلى حواس
 النظر والسمع وسائر الحواس الحيوانية ، وهذه أيضا هى المنبهات التى تصل إلينا عن
 طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى الذى
 يحيط بنا ، ما عدا المؤثرات التى ينفرد بها الإنسان وتؤدى له وظيفة التنبيه لذلك
 التنبيه » .

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية،
 فهى تكاد أن تقرّر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « الیوجا » المعروف عند
 نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر
 — إن لم نقل التأثير المطلق — فى كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل
 والوجدان .

مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ فِي عُلُومِ الْأَحْيَاءِ

إن العلم الطبيعي حذر في تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه إذا وصل إلى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانها وإخفاءه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانه لنظريته في تحول الأنواع .

وإذا وازنا بين حذر العلم في الحكم على الماضي وحذره في الحكم على المستقبل المحدود ، فهو في الحكم على المستقبل أحذر وأقرب إلى التردد بل إلى التوقف عن مجرد الظن إلا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضي وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا .. فإن علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله إلى النقيض .

وعذرهم في هذا التهييب مفهوم ، وهو أدل شيء على أن دلائل التطور الماضي لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين ..

عذرهم أن العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضي ليس إلا ، ولكنه ينشئ الطريق ويتمشى فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير إلى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لا يزيد عمله على رسم طريق .

إن كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الإنساني كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجي » الكبير الأستاذ « مداوار » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعي « سنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العالية في تهية جسم الإنسان لقبول الأجسام الغريبة التي تنفر منها خلاياه على الرغم

من تقسيم الآدميين إلى فصائل وعائلات في تكوين الدم وأنسجة الخلايا ، فإنه قد تبين له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الإنساني وحدة لا تتكرر في مكونات بدنه ، وأن كل حكم على بنيته من طريق التقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند إجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والأعضاء من بنية إلى بنية .. وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلتقي محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال إنه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلتقي هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الإنسان لولا أنه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى في مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع في موضوعه زملاءه الثقات في مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم في تمهيد للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لإخراج النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « إن الأمر يدعو إلى التساؤل : هل يتأتى للإنسان أن يمضى متطورا غدا كما تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو إلى الظن بأن هذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ .. » وطفق الأستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال - مثلا - إن الاحصاءات في بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وإن بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عاداتها في كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به أن هذه الزيادة أيضا قد شوهدت في أمم لم تفقد أبنائها في الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة .

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال إنها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة .. ولكنها تيسرت الآن

لانتظام الإحصاء في شتى مظاهر الحياة ، ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكور وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الخصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الإنسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال إن العبارة « متحف من النقائص » فلننا إذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ إلى اليوم بأناس كانوا - لولا ذلك - قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات .. كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك إلا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذلك .

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغيرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغيرات التى تقع فعلا ، وأن اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى .. ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتتمالات التغيرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات .. وهى عملية يمكن أن تتم إذا كانت كلتا الصبغتين ماثلة للأخرى تماثلا يميل بها إلى الامتزاج ثم إعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة . وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخلق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى Mutation وما يترتب على إمكان إحداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى . والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصية عجيبة وهى خاصية الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكمون ضرب من المناعة

يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل . وقد يدهش السامع - بعد كل ما عرف عن الوراثة - أن يعلم أنه لم توجد بعد فكرة وافية عن الأمور التي تفعل والأمور التي تجنب لتحسين نتائج الحيوان بالانتخاب الصناعي ..

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجي في أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغيرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وأن الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين في الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط - بعد - على يقين من نتائجها .

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تنتقل بالوراثة من الدماغ .. قال الأستاذ مداوار في محاضراته الأخيرة : « إنني في هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث في الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة - غير الوسيلة الجينية - للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ .

« وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة .. فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى إلى سراع إلى التصديق بأن الكائنات البشرية ذات أدمغة ، وأن الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وأن الإنسان قادر على أن يؤثر في الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وإن كثيرا مما قرأت في أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لا يفيدنا بشئ يزيد على ما ذكرت لكم . وإني لأحس أن البيولوجي مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التي تنفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن .. ولا بد أن تأتي هذه المحاولة مستندة إلى التفكير الصلب لا إلى التفكير «الناعم» .. وأعني بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بيئية ، مقابلا للتفكير الذي يجد متنفسه في الكلمات المونقة والعبارات المفخمة الشعرية .

« وأراني أقارب الوضوح البين إذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا إلى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكي الجرامفون » .

« فالصندوق العازف جهاز يحتوى قالباً أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك الزر بالباعث أو المحرض .. وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدي إلى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتي بأمر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . وإننى أبعث الصندوق بلمس الزر - أى زر - إلى إحداث نغمة موسيقية ، ولكننى إذا اخترت زرا معيناً فالباعث هنا يدعو إلى إحداث نغمة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءاً من البيئة المحيطة به وكل ذلك راجع إلى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيهها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية .

« ... والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون وأية أداة أخرى تؤدي لنا النغمات الموسيقية :

إن لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول إليه من البيئة المحيطة ... فذلك باعث كباعث الصندوق العازف إلى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف إلى الباعث هناك شيئاً أكثر من ذلك .. وهو الخطوط المرسومة التى تمر بها الإبرة فتبعث منها الأنغام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وإنما هو القالب الذى جاء إلى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقته به - إذن - علاقة تعليمية ، لأننى - بمعنى من المعانى - قد علمته كيف يؤدي النغم المسموع .

« ... ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعددنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك .. فلنذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات .. »

« ... منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون إلى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه

بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وأن كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو في الواقع حركات تنبيهية ليس إلا .. أى أن تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس - كما كان مظنونا - نتيجة شئ من الخارج .. فليست الآثار المستقرة في الجهاز الحى خطوطا مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز، ولكنها آثار جينية مودعة في الصبغيات وحوامض الخلايا .

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذى يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور، فكيف نصنف البواعث التى تفعل فعل التطور في الأجهزة الحية؟. إن النظرية اللاماركية التى تقول بوراثه الصفات المكتسبة ، هى على أعماها تنظر إلى البواعث التعليمية وتعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على إعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وإن هذه التأثيرات إذا سرت في البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة إلى أعقابها .. فالحداد الذى طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة في ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة في الخلايا التى تنشئ بدوره المنوية وتنتقل من ثم إلى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرع القوية .. ولست أفيض في مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية .. وحسبى أن أجملها فأقول إنها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية .

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا إذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فلنما في هذه الحالة قد توفيق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا إلى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخماثر من طعامها ، ولكنها تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطأها وتبين أن هذه العملية وسيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليمية . . فليس في وسع البكتريا أن تنشئ خميرة غير التى هى مفطورة على إنشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام أنه نبه الاستعداد الذى لم يكن له منه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن في التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ..

« ويصدق هذا على تطور الحيوان .. فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعليم ، إذ كان الأولون يرون أن كل تطور فلانما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم - وطالما تعرضوا للسخرية - يرون أن بذرة النسل إنما هي لإنسان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التي تعمل في تكوين الجنين إنما هي بواعث تعرض له مما حوله . ولعل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيفاءها رهين بالعوامل الخارجية عنها ..

« وإلى نحو سنتين كنا نشعر أن ضربا من الثويتم في أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجها أو معلما ، على النحو الذي نشاهده عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، يؤدي إلى إنشاء البنية لمادة بروتينية خاصة .. أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره في الوقاية من عدوى الأمراض ..

ومع البوادر التي توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون في ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبئية في جوهرها ونعود إلى الصندوق العازف مرة أخرى ..

«وبعد .. فأى ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه مافيا ؟ .. ربما قال لنا زائر قدم إلى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم .. إنه لظفر عظيم ، وإننى لألمح سره وأفهم أن هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعي ، لولا أنها صعبة جدا وأنها ليست مما يستطيع ..

إلا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وأن هنالك جهازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ .

« وإننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها

واشتباك وظائفها .. فإن تطور الدماغ قد كان آية رائعة في هذا الوجود ، وهو - ولا ريب - أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ..

« على أثنى أظن أن الدماغ إنما نشأ في مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وإن السلوك الغريزي إنما هو ذلك السلوك الذي تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فإذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة في سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها .

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم ...

« ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل إلى جيل كما تسرى الخطابات المتسلسلة التي تبدأ بكتابة خطاب إلى أحد الناس ، وتسأله أن يبعث به إلى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك إلى آخر وآخر إلى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن حفيده وهكذا ، ، على مدى الأجيال ..

« ... ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار في تطور الدماغ : أولها الجهاز العصبي وقد نشأ لتنبيه البنية .. ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطرق الجينية يأتي من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شئ أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه إلى آخرين . وإنه لعامل خاص بالنوع الإنساني لعله قام بعمله الهام منذ خمسمائة ألف سنة .. أما الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعني به دور التطور الذي يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتي سنة ..

ونسأل بعد هذا ما الذي نستفيد منه مما تقدم ؟ فنقول إن الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات .. فالمشابهة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لا يجعلها عملية واحدة في مجرى الحوادث ولا في عواقبها .. فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق الناسلات والصبغيات - أو ما نسميه بالطرق الجينية - غير مستطاعة .. وفائدة التمييز بين التطور الفردي وتطور الجماعة أن نبعد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية التي تعمل في الحاليتين على سنة التغيرات الجينية ، أو

الفكرة التي تقول لنا إن الجماعة لابد أن تولد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرية التي توحى إلينا ترك الجهد في تحسين الجماعة اعتمادا على أن الطبيعة أخبر وأدري .

* * *

« ونحن إذ نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هذه مرهونة بمقدار ما نملك من وسائل الفوص على أسرارها وخفاياها ومثابرتنا على زيادة محصولنا من العلم بما يجري فيها .. ولست أقول إن الإنسان مدفوع بغريزة تحفزه إلى الكشف والاستطلاع وإنه مسخر أبدا في طلب الحقيقة ، فإن الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبا للتطلع أو التجسس ، ولكن هذه الغريزة وإن بلغت غايتها من الإحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغي أن نكون مدفوعين دفعا إلى الاستطلاع، وإن أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال .. وما علينا إلا أن نذكر عاقبة الدعوى التي زعم أصحابها أن الإنسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال .. ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوانات الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها في هذه الخصلة هو أن الأجراس التي تدق لنا دقات التنبيه إنما هي كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا » .

* * *

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجي اقتباسا تحريفا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومحمل هذا المعنى أن مستقبل الإنسان الطبيعي مستكن في كيانه وأنه يملك وسائل التهذيب الاجتماعي ولكنه لا يقدر على إحداث أثر لم تكن مولداته مطوية في استعداداته ، وإن الأجراس التي تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هي نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذي يحتال به على الخطر بعد الانتباه إليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر دواؤك منك وما تفكر

* * *

وقبل الأستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السؤال عن مستقبل الإنسان عالم بيولوجى من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار فى منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الإنسانى Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا إلى عناية إلهية تتلخص حكمتها الهادية فى أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالإرادة على حسب جهودها ، مع الهداية التى تلهمها ولكنها لا تلهمها إلا لكى تعينها بالاهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها .

ومؤلف كتاب القدر الإنسانى هو العالم البيولوجى الجليل ليكونت دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه بحارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل إلى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمل معها ألوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها يناعى لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وأنها فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية .

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين - دى فرى De Vries - Nudin - كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور .

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما إلا إذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وأنها غاية بعيدة مقدورة » .

ثم ختم بحوته قائلا : « إن بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الإنسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه فى المعاملة أن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه - إذا صح كان خليقا أن يصبح سببا للاتجاه بمجوده إلى تلك الغاية :

« وإن الإنسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الإنسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يعمل فى أعماق البحر ولا يدري أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده .. وعلى كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى إلى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الإلهية كامنة فى تلك القرارة ، فى قراراته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل فى سبيل الله . »

* * *

ولقد آل تطور الإنسان عند غير البيولوجيين إلى تطور الإنسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التى بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الإنسان سيد الخليفة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدي المجاميع البشرية فعل الاداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الإنسان الأول ، إذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الاداة .

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأى تعبيراً أدنى إلى الفهم من تعبير الأستاذ رسل هاريسون فى كتابه : « ماذا يكون الإنسان » .. فإنه ترك لغة « بابل » الحديثة: لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغى أن يوضع إن كان له موضع على الإطلاق ، وذلك هو موضعه فى « الشخصية الإنسانية » ..

فلا مستقبل للإنسان إن لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه

الشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل ..

إن الشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الإنسان في الذهن أن تتم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس في الواقع ما يمنع « الشخصية الإنسانية » أن تتحقق كما تحققت في الذهن ، فكرة قابلة للتمام ..

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ

بعد هذا الشوط في عرض المذاهب والآراء عن الإنسان نسأل على ثقة من

الجواب :

- هل صحيح أن القرآن يلتقي بالإنسان غريبا منقطعا في القرن العشرين؟ ..

والجواب الذى لا تردد فيه ، أن القرآن - على النقيض من ذلك

- يضع الإنسان في موضعه الذى يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصبح له

وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنا » أصبح

وأصلح من الإنسان الذى يؤمن بالأسرة الإنسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية

ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة

آدمية .. وهو فضل الإحسان في العمل واجتناب الإساءة ، وليس لهذا العصر حق

على بنيه أصبح وأصلح من حق الشعور « بالمسؤولية » والنهوض بأمانة التكليف

والاحتكام إلى العقل في كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى

عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد في كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول.

إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصلح منه وأصلح

لزمانه ، فإذا آمن هذا الإنسان بالله وبالنبوة فليس أصبح ولا أصلح لعصر الوحدة

الإنسانية من الإيمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تحم النبوات ... بعد الإيمان بهذا

الإله الواحد ، لتسلمه إلى عقله وضميره ، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياه

بما يدعوه إليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة في الدنيا والآخرة .

وإذا كان هذا هو إنسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالنقاد المُنصف إلى

حظ كبير من الترفع لينظر من عل إلى أولئك المتعاملين المتوقرين ... أولئك الذين

يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأى وقال لهم مقطع الرأى

هذا أن القرآن نسخة مكررة - بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك الديانة ،

وأنه لم يحدث بعدها جديدا في عالم الروح وعالم العقيدة وهو الذى هدى العالم في أمر
الإله وفي أمر النبوة وفي أمر الإنسان إلى هذا الفتح المبين .. وما من بقية في لباب
العقيدة بعد هذا الجديد الدائم في أمر الحقيقة الإلهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر
الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الإنسان الذى تخاطبه
الأديان ..

* * *

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن في كثير مما عرضناه أو
أشرنا إليه فيما تقدم . وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن
تفسح للعقل الإنسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصده عن طريق
قط يترب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه
الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، إلا أن يكون
الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو إلى الله : وهو طريق الإلحاد .

ففيما تقدم من شروح حكماء الإسلام ما هو أعجب من فروض النشويين بعد
القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية إلى القرد إلى الإنسان ،
وللنشويين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها - لو شاءوا - من
آيات قرآنية فسررها بعضنا تفسيراً يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع
الأطوار :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

(سورة البقرة آية ٢٥١)

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة الرعد آية ١٧)

(سورة نوح آية ١٧)

﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ﴾

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب
« النظريات » والفروض في كل عصر يظهرون فيه ؟ .. نقول « كلا ولا ريب » لأنها
قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن
القرآن يعمل عمل الدين الصالح إذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من
الفروض وترك له أن ينتهى بها إلى نهاية شوطه مستولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أولا

يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات في معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملى للعقل في عمله ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله في الخطأ من يقحم القرآن في تحريمها وهي بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، في انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ..

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرّموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرّموا القول بجرائم الوباء وهي - فيما تبين بعد ذلك - إحدى حقائق العيان .

ومذهب التطور - خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع - لم يثبت بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى لأن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعي ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس في القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعي ، لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفي التحول إلى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين..

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (سورة السجده آية ٨)

وفي آية أخرى : «مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذي يثبت - إذا ثبت - على وجه من الوجوه .

ومذهب النشوء - مع سائر العلوم الحديثة - يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضي البعيد : هل يتطور الإنسان في المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه في طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع إلى القرآن ليعلم حكمه في التطور المقبل وجده على العهد به يلى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ إلى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلتفت إليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » في الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدى إلى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ أن الغد كله مرهون بميراث العقل والمشينة والإيمان ...

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم - كثرا وقل - لا ينفعهم في تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح في ظلمات الأرحام ، وإنما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الإنسانية » إلى خير ما تستطيعه العقول المميزة إذا صدقت النية على حب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم و« بقاء الأصالح » مسألة فهم واعتقاد أدنى إلى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام .

ونخال أن القرن العشرين لم يكن في غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء ، ولكنها الهداية التي تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان) و(أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)

ونعيدا كلمات موجزة في ختام هذه الصفات عن الإنسان في عقيدة القرآن وفي عقائد الأقدمين والمحدثين :

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكرم له وأصدق في وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثله من أبناء آدم وحواء: موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم اخوة من عشيرة واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ كَانُوا

(سورة البقرة آية ١٤١)

يَعْمَلُونَ ﴿ صدق الله العظيم ﴾

فهرس

صفحة

٤	تمهيد
	الكتاب الأول : الإنسان في القرآن
١٠	المخلوق المسئول
١٦	الكائن المكلف
٢٣	روح وجسد
٢٧	النفس
٣٢	الأمانة
٣٩	التكليف والحرية
٤٥	أسرة واحدة
٥٢	آدم
	الكتاب الثاني : الإنسان في مذهب العلم والفكر
٥٦	عمر الإنسان
٦٥	الإنسان ومذهب التطور
٧٧	التطور قبل مذهب التطور
٨٥	أثر مذهب النشوء في الغرب
٩٢	مذهب التطور في الشرق العربي
١١٦	الدين ومذهب دارون
١٢٢	سلسلة الخلق العظمى
١٣٠	الإنسان في علم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية
١٤٠	الإنسان في علوم النفس والأخلاق
١٤٨	مستقبل الإنسان في علوم الأحياء
١٦٠	عود على بدء

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٦٨



